ولادة على قارعة الطريق

الملتقى للنشر و التوزيع

إسم الكتاب : ولادة على قارعة الطريق

إسم المؤلف : شفاء العوير

رقم الإيداع بدار الكتب : 2021/8384

ISBN : 978-977-85882-5-5

• • جميع حقوق الطبع و النشر محفوظة للدار

ولا يجوز نقل او إقتباس أو إختزال أي جزء من الكتاب دون الرجوع إلى الناشر و الحصول على إذن خطي مسبق منه.

•• تنويه: المحتوى الأدبي هو مسئولية الكاتب بالكامل.

الملتقى للنشر والتوزيع: 9 مكرر شارع ترعة الجبل ، برج سكر ، حدائق القبة ، القاهرة – مصر.

رئيس مجلس الإدارة :

حسام عزام

Moltaqapublishing@gmail.com

Tel: +20 109 901 6240

ولادة على قارعة الطريق

مجموعة قصصية

شفاء العوير

إهداء

إلى تلك الأرواح التي انتقدتني من دون أن تشجعني

إلى تلك الأرواح التي كانت قنديل عزم

إلى تلك الأرواح التي علمتني معنى الحروف

إلى تلك الأرواح التي علمتني كيف أُسطّر على الورق

إليها جميعاً أُقدّم ما خطه قلمي مع خالص الشكر

مقدمة

لكلّ منا حكايات ألم تسكن روحه، يجهل كيف يعزفها، فتبقى حبيسة صدره، تؤلمه حيناً وتعاتبه حيناً آخر. لكلّ منا معزوفته الخاصة. ولكن، عندما يكون الألم مشتركاً بيننا، يقوم بعزفنا ولا نقوم بعزفه؛ حتى نصبح حبيسي تلك المعزوفة، ونبحث عن معزوفة تشبه معزوفتنا لنخرج قليلاً من آلامنا. سطّرت هنا وجعاً يستوطن قلوبنا ويسكن أرواحنا، نجهل كلّ الجهل كيفية إخراجه، فعزفت الحروف مقطوعتها على الورق ليخرج منها بعض القصص التي نراها كل يوم ونغض الطرف عنها.

إن أبطال قصصي يعيشون حولنا، ويرون كل يوم قصة مختلفة من الآلام والآمال. أبطالي ليسوا من نسج الخيال، بل هم قريبون منا إلى حدّ أنهم يشبهوننا في بعض الأحيان. وفي أحيان أخرى، يتحدثون على ألسنة أحبتنا. حقاً، لم أستطع أن أصل إلى كل آلامنا وأوجاعنا؛ فمنها ما نجد صعوبة في فك

قيده لنطلق صراحة من أرواحنا، ومع هذا، حاول أبطال قصصي أن يرووا جزءاً مما نعانيه.

لكل منا حكاية، ولكل منا معزوفته الخاصة، فلنبحث عما يشبهنا لنفهم وجعنا أكثر، ولنعلم معزوفات من حولنا لنقدر على مدّ يد العون لهم.

شفاء العوير

1) أمل بين أشواك الألم

تابعت سما بعينيها مريضتها جنى وهي تغادر الغرفة بعد انتهاء الجلسة الأسبوعية، ونظرة حزن تملأ عينيها. لِمَ لا؟ وهي ترى فيها زمناً عاشته وحيدة، وتستعيد ذكرى أيام أليمة لا تزال تعاني منها حتى اليوم. فالناس في مجتمعها لم يرحموها، ولم ينسوا ما جرى لها ومعها. الناس بحاجة إلى القصص لتلوكها ألسنتهم سنين طويلة، وهي متيقنة من أنها ستبقى التمرة التي تُحلّي مجالسهم، فهم لا يزالون يسخرون منها حتى الآن؛ بعد أن أصبحت من أشهر الأطباء النفسيين. أغمضت سما عينيها وهي مسترخية على كرسيها، مستعيدة مشاهد من ماضيها.

فها هي ترى نفسها ابنة السنوات الخمس تستيقظ ليلاً بحثاً عن أمها التي سافرت في رحلة استجمام لتأخذ قسطاً من الراحة من عناء أعمالها الخيرية وحفلاتها الكثيرة، إلا أنها لم تفكر في اصطحاب ابنتها؛ لأن صديقاتها لا يردن أطفالاً يركضون خلفهن. أما والدها، فمن المؤكد أنه لم يعد منذ أن غادر إلى العمل صباحاً، فهو لا يرغب بهدر الوقت ذهاباً وإياباً، فبقي في عمله. بكت عندما لم

تجد أحداً إلى جوارها، بكت حتى جفت الدموع في مقلتيها، وعادت لتنام وحيدة. لقد تركها والداها في المنزل بمفردها، وما من أحد معها سوى الخدم؛ أولئك الأشخاص الذين يعملون كالآلات، والذين أصبحت مشاعرهم تحتل أسفل سلم أولوياتهم، ولا يولون من يحيط بهم أي اعتبار.

مسحت سما دمعة ترقرقت على خدها متجنبة التفكير بما مرّ من أحداث في حياتها- فهي لا تزال تشعر بألمها- إلا أن الماضي أبى إلا أن يفتح كل أوراقه اليوم؛ فها هي تتذكر يومها الأول في سنتها الأولى بالمدرسة، وتتذكر الخوف الذي كان يسكن قلبها من المجتمع الجديد. كم تمنت لو كانت أمها من أوصلتها إلى المدرسة، وقاد والدها السيارة بهما. ولكن أمنيتها تحطمت على صخور الواقع كما تتحطم أمواج البحر على صخور الشاطئ. فقد كانت أمها منشغلة بالتحضير لحفلة ستقيمها في منزلها، ووالدها غادر على عجل لإتمام صفقة حياته كما أسماها. فها هي تمسك يد الخادمة التي أوصلتها إلى صفها، لم تبادر تلك الخادمة إلى الطلب من المعلمة الاهتمام بها؛ لأن والدتها لم تطلب منها القيام بذلك، بل اكتفت الخادمة بإجلاسها على كرسيها، وغادرت من دون اكتراث للخوف الذي

يعتري نفس تلك الطفلة من كل الوجوه الجديدة. مسحت سما دمعتها محاولة تجاهل ما حدث، ولكن الفجوة كانت تزداد بينها وبين والديها يوماً بعد يوم. وانتهى بها المطاف بها منطوية على نفسها، وكارهة الجميع، وحاقدة على الطبقة الأرستقراطية التي تنتمي إليها. تذكرت سما كم تمنت لو كانت مكان رفيقتها جنان؛ تلك الفتاة الفقيرة وإنما الغنية بحب والديها لها، وكم مرة ومرة حسدت زميلاتها على الحبّ الذي يغمرهن به أهلهن.

ما إن كبرت سما قليلاً حتى حذّرتها والدتها من البكاء قائلة لها: "لا تبكي كما يبكي الصغار؛ فأنت فتاة جميلة، والدموع تجعلك تبدين حمقاء. احبسي دموعك، وبعد فترة ستعتادين على عدم البكاء". وهذا ما كان. ولم تبكِ مجدداً، فصارت تكبت مشاعرها حتى شعرت يوماً أنها على وشك الانفجار. عندها، سعت للتنفيس عن مشاعرها بالبكاء، فلم تجد لذلك سبيلاً. فبعد سنين من حبس الدموع، أصبح البكاء حلماً صعب التحقق بالنسبة إليها، وربما أصعب أحلامها. يومها قررت أن تعبّر عن مشاعرها بطريقة أخرى، فأخذت تجرح نفسها كلما شعرت برغبة بالبكاء وعجزت عن ذلك. في البداية، سعت لإخفاء تلك الجروح

عن أعين المحيطين بها، ثم لم تعد تعير اهتماماً إن رأى المحيطون بها هذه الجروح أم لم يروها.

حين وصلت إلى الجامعة، كانت قد توغلت بحياة الإيمو[1] حتى أصبحت تتبعهم قلباً وقالباً. لم تبالِ بنفور الناس منها بسبب مظهرها الغريب، كما لم تبالِ بقلة أصدقائها. فهي لم تكن ترتدي إلا الأسود من الثياب، وكانت الجروح تغطي وجهها.

شعر والدا سما بالرضى لانكفاء الناس عن مصادقة ابنتهما، فهما كانا يحبذان ابتعاد الأصدقاء عنها بحجة أنهم يتقربون منها طمعاً بمالها. ولكن، عندما كانت ابنتهما تنظر إلى عيون أولئك الطامعين المفترضين بمالها، كانت ترى فيها نظرات الاشمئزاز من منظرها والشفقة على حالها، عوض أن ترى نظرات الطمع. إلا أن ذلك لم يزدها إلا انطواء على ذاتها وإيغالاً في إيذاء نفسها.

فتحت سما عينيها بعد كل هذا السيل من الذكريات على صوت الممرضة وهي تذكّرها أن دوام العمل قد انتهى، فأسرعت تجمع أغراضها، وحملت حقيبتها،

[1] **الإيمو** هو اختصار لمصطلح متمرد ذو نفسية حساسة.

وغادرت المستشفى بخطوات واثقة، وودّعت كل من صادفته في طريقها بابتسامتها الوادعة. وما إن وصلت إلى سيارتها حتى دخلتها، وألقت رأسها على المقود، وأخذت تلوم نفسها لسماحها للماضي بالعودة إلى واجهة ذكرياتها ومحاصرتها من جديد. فقد عانت الأمرين لكي تنساه، ولكن جنى أعادت لها الماضي بذكرياته البشعة. عندئذ، استجمعت عزيمتها التي بعثرتها ذكريات الماضي، واتصلت بصديقتها المقربة منى. وما إن سمعت صوتها العذب حتى عاجلتها قائلة: "هل يمكنني دعوتك لتناول الغداء معي في مطعم من اختيارك؟".

أحست منى بالحزن الذي يكتنف صوت صديقتها، فردت عليها قائلة: "بكل تأكيد عزيزتي، إنني بانتظارك".

شكرتها سما وأنهت المكالمة، وأحست بأن ثقلاً قد انزاح عن كاهلها؛ فقد كان يستحيل عليها العودة إلى البيت وهي على هذه الحال من اضطراب المشاعر؛ حيث ستستقبلها والدتها بعصبيتها وانتقاداتها المعتادة. انطلقت تقود سيارتها بهدوء، محاولة أن تبقى صافية الذهن ولا تسرح بأحداث الماضي، فقد فتح من أوراقه اليوم ما يكفي. وما إن وصلت إلى منزل منى حتى اتصلت بها لتعلمها

بوصولها، فرأتها تتقدم نحو السيارة وهي تدفع عجلتيَ كرسيها المدولب والسعادة بادية على وجهها. عندها، ترجلت، وأسرعت الخطى لمساعدتها على الجلوس في السيارة، ثم وضعت الكرسي في صندوق السيارة الخلفي.

ما إن جلست منى ولمحت الحزن في نظرات صديقتها، حتى بدأت تدفعها نحو الابتسام بعد أن ألقت سيلاً من الفكاهات، وأتبعتها بالتندر على شقيقها الصغير الذي استلم عملاً جديداً وبدأ بالتذمر منه على الفور. وما هي إلا ثوانٍ حتى عمّت ضحكاتهما أرجاء السيارة، وبدا من الجلي أن مزاج سما يتغيّر شيئاً فشيئاً بشكل إيجابي. كانت منى على يقين بأن سما ستفضي عن مكنونات نفسها عاجلاً أم آجلاً، لذا لم تزعجها بسؤالها عن سبب حزنها. أمضت الفتاتان وقتاً ممتعاً في الخارج، وعندما أذّن المؤذن للعشاء كانتا في طريق عودتهما إلى منزليهما وهما تشعران بالغبطة والسعادة بعد أن أمضتا وقتاً ممتعاً برفقة بعضهما بعضاً. ما إن دخلت سما منزلها حتى سمعت أصوات خالتها وبناتها وشعرت بالخيبة؛ فوجودهن يعني مزيداً من المشاكل والنقد، إلا أنها حافظت على رباطة جأشها، ودخلت راسمة ابتسامة جميلة على شفتيها.

حيتهن جميعاً بحرارة، وتقدمت لتطبع قبلة على رأس خالتها، فسألتها خالتها بلهفة متصنعة: "لقد اشتقت إليك خالتي، كيف حالك؟".

فردت عليها سما: "خالتي كيف الحال؟ لقد اشتقت إليك".

فبادرتها الخالة بسؤال بارد سمج: "أهلاً أهلاً بطبيبة المجانين، كيف حال مجانينك؟".

ضبطت سما أعصابها وردت عليها بمرح ولباقة: "خالتي، إنهم مرضى وليسوا مجانين؛ متى ستقتنعون؟".

أسكتتها خالتها بحركة جوفاء متعجرفة من يدها وقالت: "لا تبدئي بالدفاع عنهم، فما من شك في أنهم مجانين".

صمتت سما ولسان حالها يردد *لا تجادل الأحمق فيخطئ الناس في التفريق بينكما*، وهمّت بالمغادرة؛ فالنقاش مع خالتها عقيم، ولا يؤدي إلى نتيجة. في تلك الأثناء، أطلت أمها وهي تقول: "عادت مجنونتي الصغيرة. لماذا تأخرت؟".

أخذت سما نفساً وردّت عليها: "لقد تناولت الغداء مع منى ولهذا تأخرت. أتريدين مني شيئاً أم أُغادر؟ فأنا منهكة".

التزمت الأم الصمت، فما كان من سما إلا أن غادرت والحزن يستوطن فؤادها ويعتصره، وسيل الذكريات المؤلمة يجتاحها من جديد.

عندما كانت سما بالجامعة، قررت أمها أنه حان وقت تزويج ابنتها، فهي تخاف عليها من العنوسة ومن ألسنة الناس، لذا بدأت تختار لها العريس تلو الآخر غير آبهة لرأيها. فهذا الذي يكبرها بسنوات، وذاك الذي اتهم بالأخلاق الحسنة فخرج بريئاً مما اتهم به، وتطول اللائحة وتطول. فكل ما كان يهم الأم زوج يقي ابنتها داء العنوسة، ولا يكون طامعاً بما لديها. إلا أنه ولحسن حظ سما لم تضطر لرفض أي منهم، بل هم الذين امتنعوا عن التقدم لخطبتها ما إن رأوا وجهها الذي تغطيه الجروح ويعتله الحزن. وفي النهاية، نجت من أولئك الهمج عندما لم يعد أحد يطرق بابها طالباً يدها بالرغم من إغراءات والدتها.

في يوم من الأيام، بالغت الأم في توبيخ ابنتها وتجاوزت حدود العقل والمنطق في ما قالته. فتحقق أحد أحلام سما، وانفجرت باكية وهي تهيم في الطرقات على غير هدى. فدخلت صدفة إحدى الحدائق الجميلة وجلست أمام بركة وأجهشت بالبكاء. هناك، كان لقاؤها الأول بمنى؛ تلك الفتاة مرهفة الأحاسيس التي تمتلك

أجمل ابتسامة، وتختزن من الأمل مقادير لا تنضب؛ بالرغم من أنها حبيسة كرسي مدولب بسبب حادث تعرضت له وهي صغيرة؛ حادث أودى بحياة والدها وتركها مقعدة. ولكن، بالرغم من ذلك لم تسمح لليأس بأن يحتضنها ببراثنه المهلكة ويمزق ستارة الأمل التي تحيط بها.

دخلت سما غرفتها وهي تحاول طرد تلك الأشباح. جلست على سريرها بهدوء وهي تسترجع ذكرى لقائها الأول بتوأم روحها؛ منى.

بينما كانت تبكي، اقتربت منها منى بابتسامتها المعهودة، وخاطبتها بدماثة قائلة: "لا يجدر بمن مثلك أن تبكي؛ فأياً يكن السبب فهو لا يستحق أن تسيل لأجله قطرات الندى هذه".

حدقت إليها سما وخاطبها بجلافة: "اغربي عن وجهي. لا شأن لك بدموعي، ورأيك لا يهمني".

عندئذ، دنت منها منى أكثر وقالت لها: "أيمكنني أن أعرف ما الذي يجعل هيفاء مثلك تبكي؟".

فردت عليها سما بانفعال وصوت عالٍ: "قلت لك اغربي عن وجهي، لا شأن لك بي. أفهمت ما أقوله أم لا؟".

تبسمت منى وهي تخاطبها بحنوّ: "ما رأيك في أن أخبرك بما يحزنني وتخبريني بما يدفعك للبكاء؟".

فأجابتها سما بعصبية: "لا شأن لي بسبب حزنك".

عندها، دفعت منى كرسيها نحو البركة وشرعت تقول: "عندما كنت في الصف الرابع الاعدادي، كانت السعادة تغمرني، وكنت أرى الدنيا بما فيها وردية الألوان. وقتها كنت أستطيع المشي والجري، وكنت دائبة الحركة كالفراشة التي تتنقل من زهرة إلى أخرى. ولم تكن لديّ فكرة عما يعنيه الحزن. وفي أحد أيام العطلة، وبينما كنت عائدة برفقة والدي من نزهة في مدينة الملاهي والسرور يغمرني بعد أن لعبت وتناولت الأطايب التي يحبها الأولاد، صادف والدي في الطريق سيارتين يقودهما شابان متهوران. لم يستطع والدي تفاديهما فاصطدم بإحداهما، وغبت عن الوعي لأستيقظ وأنا في المستشفى وأمي الحامل بجاني تبكي بهدوء. يومها قلت لها كلمات والدي الأثيرة: "لماذا تبكي هاتان اللؤلؤتان؟".

حينها، أجهشت بالبكاء، وضمتني إلى صدرها في ما بدا كاجتماع عائلي بين أم وجنينها وطفلتها. وبعد حين، أتى الطبيب وأخبرنا بما لم تقوَ والدتي على سماعه ولم أفهمه. لاحقاً، أُعلمت بأن والدي غادرنا إلى غير رجعة، وبأنني فقدت القدرة على استعمال رجليّ مرحلياً. حينها بكيت إلى أن جفت دموعي، ومنذ ذلك الحين لم تنته تلك الفترة المرحلية، ولا أزال كما ترين حبيسة هذا الكرسي.

ما إن فرغت منى من سرد القصة التي تحزنها، حتى احتضنتها سما، وسردت على مسمعيها قصتها. ومنذ ذلك الحين، أصبحتا أعزّ صديقتين بل أختين لم تلدهما أم واحدة. كانت منى السند الذي لم تجده في عائلتها، وساعدتها على تخطي حالة الإيمو، ودعمتها يوم قررت أن تدرس علم النفس، لكي تقف إلى جانب إلى كل نفس متألمة تعاني بصمت.

فتحت عينيها وهي تحمد الله على صديقة مثل منى؛ فلولاها لما وجدت الطريق السليم.

وبعد مرور أسبوع، وفي موعد قدوم جنى إلى الجلسة، كانت سما تستعد لتخبرها بقصتها؛ عسى أن تستفيد منها. فجنى ومنذ شعورها بأنها منبوذة وإحساسها بأنها

تسلك الطريق الخاطئ بتباعتها للإيمو، بدأت بالتردد على عيادتها. قصَّت سما قصتها على مسمعي جنى لتأخذ منها العبر؛ جنى التي أخذت القوة تتملكها لمجابهة الحياة من دون تردد أو خوف. فهي لن تسمح لأحد أن يخرب لها حياتها ولو كان أقرب الناس لها. أما دكتورتنا سما فبقيت ثابتة تواجه مصاعب الحياة بقوة ودعم من صديقتها الغالية منى، وهي على يقين بأن الغد أجمل مهما كان مؤلماً.

2) الطيبة في زماننا مشروع فاشل

جلست سهى وقد عقدت العزم، بعد طول تفكير، على أن تبدأ بحساب نتائج تصرفاتها مع من يحيطون بها، بعد أن تعبت إلى حدّ الإنهاك من التصرفات الغريبة التي يقدمون عليها، ومن نقدهم المحبط. لقد مرّت ساعات عليها وهي تكتب ولا تلبث أن تمحي ما كتبته، قبل أن تعاود الكتابة من جديد. بدت بطريقتها هذه كمن يحاول أن يجد عذراً لتصرفاتهم وأفعالهم الطائشة. لطالما كتبت وأتلفت ما كتبته. فعلى الدوام، كانت تلام على صمتها، وتعتبر مخطئة بسبب احترامها من يكبرونها سناً وعطفها على من يصغرونها.

لقد كتبت ما حدث معها ذات يوم عندما كانت في المدرسة. فقد جلبت إحدى صديقاتها إلى المدرسة مجموعة من أشرطة الفيديو، وأخبرتها أنها عبارة عن أشرطة رسوم متحركة، وطلبت منها أن تحتفظ بها لديها لأن ضيوفاً أتوا لزيارتهم، وتخشى أن يعبث أولادهم الثلاثة المشاغبون بها ويتلفونها، ورجتها أن تحتفظ بها إلى أن يغادر الضيوف وأولادهم منزلها، وهذا ما كان. فوضعت سهى الأشرطة في

حقيبتها المدرسية. وبعد انتهاء الاستراحة، تفاجأت سهى بدخول المديرة وطلبها تفتيش حقيبتها، وعندما عثرت على الأشرطة، اصطحبتها إلى مكتبها وهي تهددها بالثبور وعظائم الأمور، وبأنها ستفصلها من المدرسة لمدة أسبوع إن كانت هذه الأشرطة تحتوي على ما يخدش الحياء والآداب العامة. كل ذلك التهديد ولم ترمش عين لسهى؛ فقد كانت واثقة من محتوى هذه الأشرطة، لأن هذا ما أخبرتها به صديقتها عندما سلمتها إياها. وفي النهاية، من حق المديرة أن تتأكد من مضمونها. ولكن، عندما اطلعت المديرة على الأشرطة وما تتضمنه من أمور فاضحة، كان الأمر بمثابة الصاعقة التي نزلت على رأس سهى التي أخذت تبكي وتخبرها بحقيقة أنها وديعة أودعتها لديها صديقتها، إلا أنها لم تصدقها، وبالفعل فصلت من المدرسة لمدة أسبوع. وليت الأمر انتهى عند هذا الحدّ؛ فوالداها لم يرحماها، فأذاقاها من العذاب أصنافاً؛ ضرباً وشتماً وحبساها في غرفتها، وضربا حولها حصاراً استمر لسنوات عديدة. ومما زاد الأمر سوءاً، إنكار صديقتها أنها أودعت الأشرطة لديها. في الحقيقة، لقد حصلت صديقتها على هذه الأشرطة من قبل أخيها، وبمساعدة من خالتها الصغرى التي كانت مستاءة لما تعانيه ابنة أختها

بسبب تفوق صديقتها فتفتقت قريحتها عن هذه الفكرة الشريرة لكي تنتقم من تفوقها. وضعت سهى القلم على الطاولة، وأخذت تكفكف دموعها، فقد هدمت هذه الحادثة ثقتها بالناس، ولم تقبل بعد تلك الحادثة أي شيء من أي كان؛ فهي لم تكن راغبة بأن تلدغ من الجحر مرتين.

ما لبثت أن عادت إلى أوراقها تتأملها، وهي تتذكر موقفاً آخر مؤلماً حدث لها في عامها الأخير من المرحلة الثانوية. فقد كانت تتشارك طاولة الدراسة مع فتاتين؛ إحدهما تدعى هناء والأخرى نداء. وكانت تربط الاثنتين صداقة وثيقة، وسعتا لكي تضّما سهى إلى مجموعة أصدقائهما، نظراً لشطارتها وسمعتها الحسنة، إلا أنها ترددت كثيراً؛ وذكرى ما حصل لها بسبب صديقتها في العام الماضي ماثلة أمامها. ولكن، نتيجة لإصرارهما بدأت تبني معهما صداقة. ومع اقتراب العام الدراسي من الانتهاء، دنت منها هناء واتهمتها بأنها تكرهها، وبأنها سيئة الخلق، وعديمة الإحساس،

وكالت لها ولوالديها الشتائم، وادعت أنها ما كانت لتصبح ما هي عليه من تبلد في المشاعر لولا إهمال والديها لها. وبينما كانت هناء تقول ما تقوله، صدمت سهى وحزنت ولم ترد عليها. إلا أن أكثر ما آساها هو تعرض هناء لوالديها، وهي لا تقبل أن يتناولهما أحد بالسوء؛ إلا أنها تحاملت على الإهانة، ولم تنجر إلى افتعال مشكلة مع هناء، وغادرت بكل بساطة، وهي تقول في نفسها: *لن أرد عليها، فقد كانت ذات يوم صديقتي*. بعد مضي عدة أيام، دنت منها هناء مبتسمة، وحاولت مصافحتها وممازحتها وكأن شيئاً لم يكن، فثارت في وجهها، وأعلمتها أنها ترفض أن تصادق مثيلاتها، وغادرت المكان وهي تستشيط غضباً.

حصل كل هذا بحضور نداء التي لم تتدخل ولم تحرك ساكناً. إلا أنها زارت سهى في المساء، وأخبرتها أن كل ما قامت به هناء هو بدافع الغيرة منها. فهي تغار من طيبتها، ومن محبة الجميع لها، وأخبرتها أنها كانت أقرب صديقة

لها، ولكن نتيجة لتصرفاتها أخذت تبتعد عن هناء وتتقرب من سهى.

ولكن، لم يكن باستطاعتها قطع علاقتها بها بشكل نهائي بسبب علاقة الصداقة التي تربط عائلتيهما. وتابعت قائلة: "إن هناء تشعر بأنك سرقتني منها، ولم تجد طريقة تبعدك بها عني سوى بقيامها بما قامت به. فهي تعرف أن صداقة العائلتين تحول دون قطع علاقتي بها. وعندما تهينك على هذا النحو، فستقطعين علاقتك بها وبالتالي بي، وعندها ستظن أنها استرجعت صداقتي لها".

جلست سهى بغرفتها وهي تفكر وتتساءل إن كانت طيبة قلبها هي التي تجلب لها المشاكل. عندها، عاهدت نفسها على أن تبتعد عن الجميع، وتهتم بدروسها؛ فهي تريد النجاح لتصبح طبيبة أطفال مشهورة. أغمضت عينيها وهي تفكر بالقرار الذي اتخذته حين دخلت الجامعة؛ حيث قررت أن تفتح صفحة جديدة مع المجتمع، وأن تحاول أن تكون

أقوى مما سبق؛ فهي الآن أكثر نضجاً وأشد حذراً.

في الجامعة، تعرفت على مجموعة فتيات لم يكن زميلات لها في الاختصاص عينه، إلا أنها لم تشأ أن تمتن علاقتها بهن خشية أن يتكرر لها ما حصل سابقاً. كانت تجالسهن للمذاكرة فحسب، لذا اتهمنها بالغرور والتكبر، ولكنها لم تبالِ فهي تطمح للنجاح فقط. وبمرور الأيام، عرضت عليها إحدى زميلاتها أن يتقدم أخوها لخطبتها، ولكنها رفضت الفكرة، واعتذرت بأدب، وأخبرت زميلتها بأنها لا تريد الزواج في الوقت الحالي. وعندما لم تبالِ صديقتها برأيها وتقدمت عائلتها لخطبتها رسمياً، رفضت رفضاً قاطعاً، وأخبرت أبويها أنها لا تريد الزواج إلى أن تتخرج. وحين علم شقيق زميلتها برفضها له جن جنونه؛ فكيف ترفضه تلك المغرورة. وبسبب ذلك، قاطعتها زميلتها شقيقة الخطيب المرفوض، وحملت زميلاتها على مقاطعتها بدورهن.

شعرت سهى بالدوار، فهي لم تكن قادرة على التصديق كيف يمكن لتصرفاتها العفوية وطيبتها أن تعود عليها بهذا الوبال العظيم. عندها تركت أوراقها وقلمها، وأدركت أنه لا بد من وجود خطب ما، فهرعت لإعداد كوب من القهوة المرة كمرارة شعورها في هذه الأثناء. وبينما كانت تعد القهوة سرحت، وعندما دخلت والدتها ورأتها على هذه الحالة، وضعت يدها على ظهر وحيدتها وفخرها في هذه الحياة وسألتها: "ما الذي يشغل بال جميلتي؟".

ابتسمت سهى وأجابتها: "لا شيء. إنه موضوع تافه أفكر به".

تبسمت أمها وقالت: "أللأمر علاقة بكل تلك الأوراق المبعثرة بغرفتك؟ توقعت أنك انتهيت من تلك العادة بعد تخرجك من الجامعة".

ضحكت سهى متذكرة مشاجراتها مع أمها أيام دراستها؛ حين كانت ترمي الأوراق في كل مكان، وتقوم في نهاية الأسبوع بترتيب غرفتها لتعاود

رمي الأوراق من جديد.

فردت عليها سهى: "أمي لقد كنت أكتب بذهن شارد فنثرت الأوراق.

سأرتتب الفوضى التي خلفتها ورائي بعد انتهائي مما في يدي".

تركتها أمها وهي تقول: "حسناً، سنرى".

عادت سهى إلى غرفتها وهي تفكر بما كانت تكتبه لتعبث من جديد بالأوراق، وتخط في النهاية وبخط عريض الطيبة في زماننا مشروع فاشل عندئذ رفعت رأسها وقالت: "سأحرق تلك الطيبة التي سكنتني لسنوات. عذراً أمي وأبي فقد تعبتما وأنتما تغرسانها في داخلي طوال سنوات، فعلى أيديكما تعلمت مبادئ لا تتناسب مع هذا الزمان وناسه. سامحاني، فاليوم سأمسحها من دون عناء تفكير، فأنا لن أحتمل كل ما يحدث لوحدي. فكيف لفتاة بكل تلك الطيبة أن تحتمل آلالم مجتمع قاسٍ بمفردها؟! فمجتمعنا متناقض؛ فهو يدعي الطهر والعفاف ولكن الفساد ينخر به من كل الجهات.

3)الوطن أغلى من الولد

تعالت أصوات الزغاريد في أرجاء القصر الكبير فرحاً بعرس ابنة صاحب القصر الوحيدة شام التي تبلغ من العمر ست عشرة سنة. كانت السعادة تعم المكان، وبدت العروس كالفراشة بأبهى حللها. نزلت درجات السلم بخجل وخوف مما هي مقدمة عليه؛ بالرغم من أن عريسها هو ابن عمها الوحيد، إلا أن هذه الحقيقة لم تبعد عنها رهبة الحياة الجديدة المقدِمة عليها. أمسكت أمها بيدها، ومشى والدها بجوارها؛ فهما ينتظران هذا اليوم منذ اللحظة الأولى التي رأت عيونهما فيها شام، شخصت أنظار المدعوين جميعاً إلى العروس، وتحسر الكثيرون لأنها لن تكون من نصيب أولادهم أو إخوانهم؛ فعروسنا كانت آية من الجمال. وحين سلم الوالد العروس لعريسها أوصاه بها خيراً، وهمس في أذنه قائلاً: "صنها ما دامت في قلبك محبة لها، وسرّحها سراحاً حسناً حين تزول تلك المحبة".

يومها، وعده فارس بأن يصون أميرته، ويرفعها على أكف الراحة. في تلك الليلة رقص الجميع فرحاً، وشاركتهم الفراشات والعصافير فرحتهم بتلك اللحظات الجميلة.

ظل العرس الأسطوري حديث الناس لشهرين، وانقسمت آراء الناس وخاصة الفتيات والنساء؛ بين قسم سعيد لما نالته هذه العروس، وبين آخر حاسد وحقود لأنه لم ينل ما نالته. وعاشت عروسنا سعيدة مع زوجها الذي سعى لتوفير كل سبل السعادة والراحة لها، ولم يبخل عليها يوماً بشيء. مرت السنوات، وعادت شام لتكون حديث المجالس بسبب تأخر حملها، وأصبحت الأم التي تمنت لو كانت من نصيب ابنها تحمد الله لأنها لم تكن من نصيبه؛ لأنه كان سيحرم من أولاد يحملون اسمه، ويهتمون لأمره حين يكبر. وبمرور الأيام، فترت علاقتها بزوجها، وتغيرت معاملته لها، وبدت شام ذابلة ذاوية، وأخذت تداوم في عيادات الأطباء بحثاً عن علاج وحلٍّ لمشكلتها، حتى وهن جسدها وأعيته كثرة الأدوية والفحوصات. وبدأت شام تشعر– من دون أن ترى– بإلحاح والدته عليه لكي

يتزوج من أخرى لكي يرزق بزينة الحياة الدنيا. وكانت ترى أن حلم الأمومة يتلاشى يوماً بعد يوم من أمام ناظريها.

ذات يوم، أبت الفراشات الطيران، وغردت العصافير تغاريد حزينة، والتفحت السماء بشالٍ رمادي داكن وأجهشت بالبكاء حزناً على حال شام؛ فاليوم عرس زوجها من أخرى. جلست وحيدة في قصر والديها، تنظر من النافذة إلى البعيد، والدموع تترقرق على وجنتيها الحريريتين، ورفعت يديها إلى السماء متوسلة إلى الله أن يرزقها طفلاً يفرح قلبها، وتتكئ عليه عند عجزها. هذا كان جل ما تتمناه. فهي لم تلم فارس؛ فحلم الأبوة كان يسكن روحه، وكانت الضغوط عليه كبيرة، وها هو على وشك تحقيق هذا الحلم.

دخلت أمها، فوجدت صغيرتها على هذه الحال، فربتت على كتفها وقالت لها: "وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم. عليك بالصبر يا صغيرتي". قالت ذلك، فيما كانت أصداء حفل زواج صغيرتها تصدح في ركن قصي من رأسها، وكأنه كان بالأمس، وأخذتها الحسرة عليها؛ فما الذنب الذي اقترفته لتموت هذه الفراشة قبل أن تضع بيوضها، ولتشيخ العصفورة الحالمة قبل أوانها!؟

حضنت شام أمها وبكتا حزناً وألماً. لم تحتمل الأم أن تشاهد ابنتها على هذه الحال من الحزن الشديد، فغادرت الغرفة وقلبها يدعو بالصبر لصغيرتها. مرت الأيام، وها هو شهر ينقضي على آخر مرة رأت شام فيها "فارس". كان التعب يسكن روحها، والآلام تملأ جسدها. وقد اعتقدت كما اعتقدت أمها أن ذلك بسبب فراقها لفارس، ولم يخطر ببالهما أن تكون شام حاملاً. لكن والدها أصر على زيارتها للطبيب، فقد خشي أن تكون مريضة أو تعاني من سوء التغذية. وبعد فحص سريع، أفاد الطبيب أنها حامل؛ فطارت شام ووالدتها من الفرح. وعندما خرجت من العيادة، كانت تتسابق مع خطواتها حتى تزف الخبر السعيد لفارس؛ ولكن الرياح تجري بما لا تشتهي السفن. فها هي ترى "فارس" وزوجته الجديدة، وعندما رأتهما يخرجان من عيادة الطبيب المجاورة والفرح يغمرهما، أدركت أن زوجته الجديدة حامل، وأن خبر حملها لن يؤثر على فارس فقد نال ما يتمناه، مرت أيام حملها ثقيلة، لم ترَ "فارس" خلالها أبداً، ولم يسأل عنها أو يحادثها. كان جل اهتمامها هو مولودها القادم؛ حلم السنوات الماضية. وذات صباح قصدت عيادة الطبيب لموعد روتيني، وتركت والديها في القصر، ولم تكن تعلم ما يخفيه القدر لها

ولهما. وعندما عادت، رأت ما لم تصدقه عيناها؛ فقد كان القصر ركاماً، بكت شام حتى انهارت، وهي ترجوهما ألا يتركاها وحيدة. لاحقاً أُعلمت أن ما من أحد ممن كان في القصر خرج حياً من قصف مروحية العدو. مرت الأيام صعبة عليها، وأقامت في شقة مستأجرة، تسترجع ذكريات أيام الزمن الجميل؛ عندما كان لديها أبوان وزوج، وتسكن في قصر، ويحيط بها الخدم والحشم. وذات يوم شعرت بألم المخاض، وبسرعة اتصلت بالإسعاف، فأقلتها السيارة إلى المستشفى؛ فهي لم تكن تقوى على الذهاب بمفردها. وهناك، أبصرت روح جديدة الحياة على هذه الأرض.

شاركت شام وليدها بالبكاء، وكانت دموعها هذه المرة بمثابة قطرات الندى التي تنعش الوردة الذاوية. احتضنته سعيدة، ولم تطق صبراً لتبلغ "فارس" بقدوم الفرحة التي انتظراها طويلاً. بعد ساعات، اتصلت بعمها تخبره بولادتها، فعادها وزوجته مهنئين وفرحين ببكر أحفادهما. ولكنها كانت تجهل خططه الجشعة وما يدور في عقل زوجته الأنانية. فقد حملا الطفل، وباركا لها، وقالا لها إن "فارس" قد أرسل إليها رسالة. تبسمت متفائلة وهي تفكر أنه قد يرغب بوصل ما انقطع بينهما من

أجل صغيرهما الوسيم. تعجلت رحيلهما حتى تحظى بفرصة قراءة الرسالة. وعندما هما بالمغادرة، دفعا بالرسالة إليها، وقد علت وجهيهما ابتسامتان صفراوان لم ينتبه لهما قلب شام الطاهر.

فتحت الرسالة بسعادة غامرة لتجد ما حطم آخر آمالها ونغّص فرحتها في الحياة. لقد وجدت ورقة طلاقها، مرفقة برسالة من فارس يخبرها فيها بأنه يريد أن يتولى أمر المولود، ويريده أن يعيش في كنفه حتى يكبر بين إخواته القادمون. بكت شام بمرارة؛ فكيف لها أن تتخلى عن حلمها وابنها لتربيه وتنشئه امرأة سواها– وإن كان في كنف والده –فهي أحق من غيرها بالعناية به ورعايته حق رعاية. وبدأت تفكر بالحل السليم لتبقي طفلها الصغير بين أحضانها، وكم تمنت لو أن والديها لا يزالان على قيد الحياة لكي تقوم أمها برعايتها ويمدها والدها بالقوة. ولكن، ليس كل ما يتمناه المرء يدركه. فكّرت شام بحلّ لساعات، ولكن دون جدوى، فقررت أن تتصل بفارس وتحاول أن تستعطفه لكي يبقي "فراس" معها. حاولت معه كثيراً، وبكت أكثر، لكن أياً من هذا لم يجدِ معه نفعاً. وأقسمت له إنها لن تحرمه إياه، وإنه يستطيع أن يراه متى شاء. فهي لم ترد إلا أن يبقى معها لتقوم

بتربيته؛ فهي أمه وأحق الناس به. إلا أن جواب فارس كان قاطعاً كحد السيف؛ وهو بأنه أحق منها بتربيته، وأنهى المكالمة. أحبطها جوابه، لكنها لم تيأس، وقررت أن تحاول مع عمها عله يستطيع إقناعه، وكان لها ما طلبت، فقد وعدها عمها بأن يتركها تربي الوليد شرط أن تتنازل له عن تركة أبيها. لم تفكر ثانية، وبقلب الأم المعطاء، وافقت على ذلك مشترطة أن لا يطالبوها يوماً بفراس؛ وكان لها ما أرادت.

عاشت شام لسنوات طويلة وهي تكابد مصاعب الحياة وحيدة، وعملت ليل نهار من أجل فراس ومن أجل سعادته. شب فراس، ونال شهادته الجامعية، وأصبح مهندساً؛ وهذا جل ما تمنته أمه. وفي صبيحة يوم مشرق جميل، أتاها فراس وعلى وجهه ابتسامة مشرقة، أتاها راجياً أن تسمح له بأن ينضم لقوافل المقاومين من أجل فلسطين. لم تفكر مطلقاً، بل أعطته موافقتها وبركتها بسرعة. فحلم أن يكون فراس مع المقاومين لاستعادة أرضها والثأر لجديه كان يراودها كل حين. ودعها فراس، وطلب منها أن تدعو له ولرفيق عمره بالنصر والتمكين. وبعد عدة

أشهر، عاد فراس ورفيقه محمولين على الأكف؛ فقد عاشاً معاً واستشهدا معاً. لم تبكِ شام شهيدها، بل زغردت لعريسها البطل الشهيد.

نهضت شام من أمام نافذتها، ومسحت دموع الحزن على فراق ولدها الشهيد، ورفعت يديها عالياً نحو السماء ودعت: "رباه، تقبل ولدي عندك مع الشهداء، رباه تقبله ورفيقه واجعلهما مع الأنبياء والشهداء والصالحين. رباه أجرني في مصيبتي، وخلفني خيراً منها، فأنا قد ضحيت بأغلى ما أملك في سبيلك.

مسحت دموع الحزن وهي تقول: "من أجل الوطن لا يوجد غالٍ ولا رخيص. قدمتك يا كنزي لأجل وطنك الغالي نم اليوم بهناء نم نومة الأبطال؛ فأنت اليوم عريس". تمددت شام على سريرها، وأغمضت عينيها، وفارقت هذه الدنيا راضية بكل ما قامت به من أجل ولدها أولاً، ووطنها ثانياً. فالوطن كالولد لا يوجد بينهما فرق.

4) أحلام محطمة

جلست غادة بسعادة إلى جانب زميلتها في القاعة التي يجري فيها تخريج طلاب إحدى الجامعات الأكثر عراقة التي تزخر بنخبة الطلاب والطالبات المتفوقات. وكان وجهاهما يشعان نوراً وتألقاً، والأمل والفرح يسكنان عيونهما؛ فها هما اليوم تخطوان الخطوة الأولى في طريق تحقيق أحلامهما التي سكنتهما وعاشت معهما لسنوات.

خاطبت غادة صديقتها قائلة: "أخيراً، سأحقق حلمي، وسأصبح مربية أجيال".

نظرت إليها منى بفخر وقالت لها: "ستكونين أعظم معلمة.كم سيكون طلابك فخورين بك. فأنت الفتاة المناسبة لهذا العمل العظيم".

ابتسمت غادة بسعادة لتشجيع صديقتها لها وشكرتها بهدوء.

ألقى مدير الجامعة كلمة أثنى فيها على جهود الطلاب، وبعدها وزعت الشهادات على المتخرجين. استلمت غادة شهادتها وقلبها الصغير يكاد يحلق عالياً من فرط

سعادتها. وبعد انتهاء الحفل، ركضت لتحضن أمها التي اغرورقت عيناها بدموع الفرح والفخر بصغيرتها التي أوشكت على بدء حياتها العملية التي لطالما حلمت بها.

بعد أيام، بدأت غادة بالبحث عن عمل، بل عن حلم حياتها، ودأبت تتنقل من مكان إلى آخر كالنحلة العاملة بجد. وكانت تأمل أن تجد عملاً بأسرع ما يمكن؛ فدرجاتها العالية، وحبها لهذا العمل جعلها تؤمن أنها ستحصل عليه بسهولة.

في صبيحة يوم مشرق وجميل، وبينما كانت الطيور تحلق في كل مكان ناشرة السكينة والطمأنينة في النفوس، استيقظت غادة بسعادة ونشاط، وقامت بواجباتها اليومية، بسرعة وخرجت لتجد أمها بانتظارها ولسانها يلهج بالدعاء لها بالتوفيق. طبعت غادة قبلة على رأس أمها وقالت: "اليوم موعد المقابلة في المدرسة، هل سترافقينني؟".

ردت الأم بكل حنان ومحبة: "بكل تأكيد، فأنا أتوق لذلك".

ابتسمت غادة وقالت: "لا تنسيني من دعواتك الجميلة يا غالية".

تأنقت غادة بثياب رزينة، وتزينت بابتسامتها المعهودة، وغادرت منزلها المتواضع، ملقية التحية على كل من صادفته في طريقها فها هو صاحب البقالة يرد عليها التحية ويتمنى لها حظاً جيداً، وهذه الخالة أم جميل تدعو لها بالتوفيق، وتلك الجارة اللطيفة تتمنى لها النجاح، أما جارتهم الفضولية فشيعتها وأمها بنظراتها إلى أن استقلتا سيارة الأجرة ونصائحها وثرثرتها لم تتوقف لثانية.

سألهما السائق: "إلى أين يا خالة؟".

فأجابته الأم: "مدرسة المتفوقين الإعدادية".

نظر السائق إليهما، وهو يحاول مباشرة حديث معهما، فقال متسائلاً: "ما دامت المدارس لم تفتح أبوابها بعد، فهل لي بمعرفة سبب الذهاب لتلك المدرسة؟".

فأجابته الأم: "ابنتي تخرجت هذا العام، وهي تبحث عن عمل، وباب التقديم للوظائف مفتوح في هذه المدرسة، وها نحن ذاهبتان للمقابلة".

فخاطب السائق غادة قائلاً: "وفّقك الله. أتمنى أن تجدي عملاً بمجالك ولا تضطري للعمل بمجال مختلف".

عندها قالت الأم: "شكراً لك يا بني، ولكنها من المتفوقات، وأتوقع أن تجد عملاً بأسرعِ وقت".

ابتسم السائق بحزن وقال: "أتعلمين لقد كنت طالب طب مجتهداً، درست سبع سنوات، ولم أرسب مرة واحدة في أي مادة، وكنت أحلم أن أصبح معيداً في الجامعة. درست ليلاً ونهاراً، ولم أكن أنام إلا لساعات قليلة، ابتعدت عن أصحابي وزملائي، وكان ابتعادي عنهم ضريبة التفوق؛ فلم يكن لدي وقت للدراسة والأصدقاء فآثرت الدراسة على الأصدقاء. كنت أرسم مستقبلاً واعداً، وحين تخرجت نلت مرتبة الامتياز بجدارة، وكنت الأول على دفعتي. توقعت أن أعين معيداً في الجامعة. لمَ لا؟ وأنا مجتهد وأحب هذا المجال، إلا أنني صدمت عندما تم تعيين من لم يكن متفوقاً، ولم يحب هذا المجال يوماً؛ فهو درس هذا الاختصاص إرضاء لوالده الذي كان عميد الكلية، والذي قام بتعيين ابنه معيداً بالرغم من عدم كفاءته. في الحقيقة، لم أيأس بسبب ما جرى، بل بحثت عن عمل في كل الجامعات، ولكن الجواب كان دائماً الرفض من دون سبب مقنع، أو لأنني لا أمتلك خبرة. بكل بساطة، لم أجد عملاً لأنني لم أمتلك واسطة. وبعد سنة من

البحث الدؤوب استسلمت، وقررت التخلي عن حلمي بالعمل معيداً، وقررت العمل في المستشفيات. لم أترك واحداً إلا وقدمت أوراقي إليه، وكنت أتمنى أن أجد عملاً حتى أستطيع الزواج وتكوين أُسرة. طال الوقت، ولم أجد مستشفى يوظفني حتى تسرب اليأس إلى قلبي، وتخليت عن كل أحلامي وطموحاتي، وها أنذا أصبحت سائق سيارة بسيطاً أعيل والدَيّ وأساعدهما على تعليم أشقائي؛ عسى أن يكون مستقبلهم أفضل من مستقبلي. وأما عن شهادتي، فأنا أعلقها على حائط غرفتي لأراها كل يوم وأتحسر على نفسي، لقد أصبح إيجاد عمل في بلادنا صعباً".

قالت الأم: "كان الله بعونك يا بني. ستجد عملاً يوماً ما بكل تأكيد. فأنت رجل رائع ليوفقك الله".

وصلتا إلى المدرسة، وكان لسان والدتها يلهج لها بالدعاء، ويرجو الله أن يحقق حلمها.

دخلت غادة إلى المدرسة والابتسامة تعلو وجهها، وقررت ألا تجعل قصة ذلك السائق تؤثر على أحلامها والمقابلة التي ستجريها اليوم. كانت القاعة مزدحمة

بالمتقدمين للعمل ذكوراً وإناثاً. ومن بين المتقدمين جلست إحداهن بخيلاء لفت انتباه الجميع؛ كانت فتاة أجنبية تدعى كاتي تحدق إلى من حولها باستخفاف واستصغار. بدأت غادة تشعر بالتوتر، فالمتقدمون كثر، فهل سيكون لها حظ بالوظيفة؟ إلا أن تشجيع أمها المستمر لها رفع من معنوياتها. وحين نودي باسمها لإجراء المقابلة، دخلت واثقة الخطى، وأجابت على كل ما طرح عليها على أحسن وجه؛ فهي تمتلك خبرة بالتعامل مع المراهقين بحكم عملها بالنوادي صيفاً. كانت إجاباتها سريعة ومن دون تفكير طويل أو تردد. وحين همت بالخروج، أثنى عليها من أجرى معها المقابلة وتمنى لها التوفيق. سارعت إلى والدتها وهي تشعر بأنها نسمة من خفتها كانت تطير كالعصافير حتى وصلت إلى أمها وبشرتها بأنها أبلت بلاءً حسناً. غادرتا المدرسة على أمل الرجوع إليها بعد أسبوع لكي يحصلا على نتيجة المقابلة وهما مفعمتان بالأمل أن توظف غادة.

مر الأسبوع ثقيل الوطأة، وبدت أيامه وساعاته وكأنها تأبى المرور، وبلغ التوتر مبلغاً لدى غادة، وكانت تدعو في كل لحظة بأن تحظى بشرف التدريس بتلك المدرسة الأفضل بين كل مدارس الوطن. وأخذت تتخيل نفسها تقف بين الطلاب

والطالبات وتشرح لهم وتساعدهم على الفهم، وتستمع إلى شكاويهم، وتنصحهم لكل خير. كانت أحلامها كثيرة وآمالها أكثر، وبقيت على هذه الحال من التوتر حتى صبيحة اليوم الذي سيعلن فيه من حاز على الوظيفة.

وعندما غادرت غادة وأمها المنزل قاصدتين المدرسة، كانت أشعة الشمس تنشر الدفء في أرجاء الوطن. ما إن دخلتا المدرسة حتى وجدتا كاتي تجلس بكل غرور وابتسامة ثقة تعلو وجهها، وحدجت غادة بطرف عينها وقالت لها :"لن تنالي الوظيفة؛ فأنا أملك خبرة أكثر منك، وشهادتي من أهم الجامعات".

طأطأت غادة رأسها، وشعرت بالأمل يتلاشى وينسحب ببطء من روحها. فكلام تلك الأجنبية صحيح؛ فخبرتها وشهادتها أهم عند رب العمل من حب ابن البلد وإخلاصه.

دعت الله أن يخيب آمال تلك المغرورة، وأن تنال هي الوظيفة لكي تقوم بتعليم الأجيال على مبادئ الدين التي تربت عليها وقيمه. وكانت تأمل أن يكون رب العمل أكثر وعياً من تلك المتعجرفة التي تريد إفساد أبناء بلدنا الغالي. وبعد اكتمال العدد، خرج مدير المدرسة بكل ثقة ليخبر الجميع بأن كاتي هي من نالت

الوظيفة؛ فهي تمتلك من الخبرة ما لا يمتلكه أي منهم، وقال مبرراً :"مصلحة المدرسة عندي فوق كل اعتبار".

خرجت غادة والحزن يسكن زوايا روحها، والدموع تنسكب من عينيها. ومع ذلك، لم تسمح لليأس بأن يسيطر عليها، وقررت أن تستجمع قواها وتعاود المحاولة بمدرسة أخرى؛ فإن فشلت هنا فلن تفشل هناك. وبدأت تقدم أوراقها في كل مكان من دون كلل ولا ملل، وكانت الإجابة واحدة على الدوام: "عذراً ليس لديك خبرة". حتى دب اليأس في قلبها بعد سنة من المحاولات الفاشلة.

وعلمت أن خبرة الأجنبي أو حتى اسمه أفضل لدى أرباب العمل من كل دراستها وتفوقها. وها هي اليوم تعلق شهادتها على حائط غرفتها، ويدور سؤال في خلدها: "إلى متى سيبقى ابن البلد عاطلاً عن العمل ويبحث عن لقمة عيشه بين الأزقة والشوارع ليرضى في النهاية بوظيفة بسيطة تطعمه وينسف أحلامه نسفاً وذاك الأجنبي ينخر ببلادنا نخراً فيفسد جيلاً قادماً، ويقضي على أحلام أهل أرادوا الأفضل لبنيهم؟".

5) قالوا إنهم فرحة...

أسندت سما ظهرها إلى الحائط، وهي تنظر إلى تلك العجوز التي تجلس وحيدة من دون أن تحادث أحداً أو تبالي بشيء. فهي لا تهتم لأمر الطعام والشراب ولا حتى النوم. وربما لم تكن لتأكل وتشرب لولا أن امتناعها عن ذلك سيودي بحياتها. أحست سما بالفضول لمعرفة قصتها بأكملها. فهي منذ أن استلمت عملها في دار المسنين منذ شهرين، تراقب تحركاتها وكلام المديرة يرن بأذنيها.

المديرة: "منذ أن قدمت وهي تعتصم بحبل الصمت. لم نسمع صوتاً لها ولا همساً؛ إلا ليلاً حين ترفع يديها إلى السماء وتناجي الله وتبكي. إذا استطعتِ أن تخرجيها من صمتها فهذا انجاز تشكرين عليه".

قررت سما أخذ الأمر على عاتقها؛ فمن المعروف عنها إصرارها وتمكنها من التغلب على الصعاب. دخلت سما غرفة العجوز وهي ترسم ابتسامة على محياها.

سما: "السلام عليكم يا خالتي".

نظرت إليها العجوز وأومأت برأسها كرد على تحيتها، ثم ما لبثت أن شردت مجدداً.

جلست سما بالقرب منها، وعرّفتها عن نفسها قائلة: "أنا سما". انتبهت سما لارتعاش يد العجوز ما إن سمعت اسمها. وتابعت: "عمري 24 سنة، وأعمل هنا منذ شهرين، وأحب أن أتعرف إليك. فأنا عندما أراك أتذكر أمي حفظها الله وجمعني بها عما قريب".

حينها نظرت إليها العجوز، ومسحت بيدها على شعرها، ولم تنبس ببنت شفة.

عندها، تابعت سما كلامها وقالت: "خالتي، أخبريني عن قصتك، فلربما يوفقني الله وأجد لها حلاً. أرجوك يا خالتي، لا تجعلي اليأس يغلبك فتنقضي أيامك بهم وغم".

عندها، نظرت إليها العجوز وهي تمسح بيدها دمعة فرّت من عينها وقالت: "أي حل ستجدينه لي يا ابنتي أيمكنك أن تعيدي لي كل ما مضى؟".

سما: "بالطبع لا يا خالتي. ولكن إن أفضيتِ لي بمكنوناتك، فربما أستطيع أن أخفف عنك الهم الذي يسكنك، والحزن الذي يضنيك".

العجوز: "آآه يا ابنتي. لقد بدأت قصتي منذ سنين طويلة. عندما كنت في مقتبل العمر، كنت كغيري من الفتيات أحلم بالزواج، ولكنني لم أكن أستطيع إعداد كوب من الشاي لنفسي، فكيف سوف أتزوج وأنجب أطفالاً؟! كانت فكرة الزواج تسكنني، ولكنني كنت دائماً ما أؤجلها، فما الذي يرغمني على الزواج وأنا أستطيع أن أعيش وحيدة، بلا أولاد أتعب في تربيتهم وأسهر على راحتهم، ويرتبط موعد نومي بنومهم وطعامي بطعامهم. ولكن، ليس كل ما نتمناه ندركه يا ابنتي. ففي أحد الأيام، جاءني خاطب مدحه أبي لي حتى مل المدح، وأثنت عليه أمي، وطار أخي من الفرح بسبب تقدمه لي، فخاطب مثله لا يفوّت. جلس أبي وأمي معي وحدثاني عن حسنات الزواج وتكوين أسرة، وكيف سيكون الأولاد الذين سأنجبهم فرحة أيامي، وعوناً لي في كِبَري، وكيف سيخففون عني مصاعب عجزي، ويقومون بما لا أقوى على القيام به؛ حتى صرت أرى الأولاد أهم شيء في الحياة. وأخذت أمي تخبرني عن فرحة الفتاة بفستان الزفاف الأبيض، وبالكثير والكثير حتى وافقت والفرحة تغمر قلبي. تزوجت وأنجبت خمسة صبيان وثلاث بنات ربيتهم ومنحتهم كل ما لدي من صحة وحنان من دون أن أتذمر يوماً. كنت

أجوع حتى يشبعوا، وأسهر حتى يناموا. فضلتهم على نفسي بكل شيء، وأنا أُردد: غداً سيكونون عوناً لي. كبر الأولاد وتقلدوا وظائف مرموقة، وتوفي زوجي تاركاً زوجة أملها كبير بأولادها. ولكن الأولاد لم يكونوا كما تصورت فقد أصبحوا كثيري الشكوى، يستثقلون مدّ يد العون لي، ودبت بينهم الخصومات بسبب من هو أولى بالاعتناء بي والسهر على راحتي. فهذه تتذرع بأنها لا تستطيع ترك أولادها لزيارتي، وذلك ترفض زوجته استضافتي لديها، وعلت أصوات الاعتراض من أزواج بناتي وزوجات أبنائي. لم يعد أحد منهم يرغب بالتقرب مني، أو وجودي بالقرب منه أو في بيته؛ مع أن جل أمانيهم عندما كانوا صغاراً كانت النوم بجواري، وسعادتهم التي لا تضاهيها سعادة عندما أطبع قبلة على وجه أحدهم. تفاقمت الأمور بين أولادي وبناتي وزوجاتهم وأزواجهن، فأزواج بناتي خيروهن بيني وبينهم، وزوجات أبنائي هددن بطلب الطلاق منهم إن مكثت في بيوتهن. وفي ليلة غاب قمرها خجلاً كي لا يرى ما سيحدث، جلبني فلذات كبدي إلى دار المسنين، متذرعين بعدم قدرتهم على الاعتناء بي بسبب مشاغلهم التي لا وجود لها، ومدعين أنني سأكون بصحبة من هم في مثل سني مما سيبعث السلوى في نفسي، ووعدوني

بزيارتي أسبوعياً. وما لبثت زياراتهم أن تباعدت لتصبح شهرية، ثم تباعدت أكثر لتصبح في كل عيد، ثم انقطعت نهائياً. إنهم لم يعلموا أنني لا أريد منهم أكثر من رؤيتهم لثوانٍ في اليوم، وأن سعادتي تكمن بأن أكون بينهم، وأن راحتي تكمن برؤية أحفادي وهم يلهون حولي، وأن سعادتي ستكون عندما أشاهد أحفادي وهم يتصالحون بعد أن يتشاجروا. لم يفكروا بأي شيء إلا بالتخلص مني. وأنا أعلم أنهم يتمنون موتي، ولكن ما بيدي حيلة. لو كان الموت بيدي لأقبلت عليه مسرورة لأريحهم، ولكن الله لم يشأ أن أموت قبل أن أكتشف حقيقة أولادي الذين أفنيت عمري لأجلهم، وفعلت المستحيل لكي أراهم رجالاً أشداء كما هي حالهم اليوم".

أصغت سما للعجوز، وشعرت بالعبرات تحرق عينيها من شدة التأثر عندما سمعت العجوز تقول وهي تنظر إلى البعيد: "لقد ضحكا عليّ بفستان أبيض، وعندما أخبراني أن الأولاد فرحة وراحة، وأخفيا عليّ حقيقة أن الأولاد شقاء وحزن وجحود، سامح الله والديّ".

عندها قالت سما: "ألهذا الحد يا خالتي؟!".

ابتسمت العجوز وهي تمسح دموعها وقالت: "لا يا ابنتي، فالخير بالأمة باقٍ ما تعاقب الليل والنهار. ولكن، على كل أم أن تزرع بأولادها خوف الله قبل أن تزرع بهم حب العلم والطموح، عليها أن تعلمهم معنى البرّ قبل أن تعلمهم الكتابة، وعليها أن تخبرهم أن الجنة تحت أقدام الأمهات قبل أن تغسل لهم أقدامهم، وعليها أن تعلمهم حبها قبل أن تحبهم، وعليها أن تفكر بيوم مثل يومي هذا".

قالت سما: "ولكن، يأبى قلب الأم يا خالتي ألا يعطي حتى لو لم يعطها أولادها شيئاً".

أجابت العجوز بعد أن سكتت هنيهة: "يا ابنتي، يجدر بالأم أن تعلم أولادها أن يبروا بها؛ ليس حباً بنفسها وإنما حرصاً عليهم. ألا تعلمين يا ابنتي أن الدنيا من أول الخليقة تسير على ناموس لا تحيد عنه؛ فالصغير يكبر والكبير يشيخ. وفي يوم من الأيام، سيعاملهم أولادهم كما عاملوا أهلهم. لذا، يجب على الأم أن تعلم أبناءها البر بها لأنها تخشى عليهم نار جهنم بسبب عقوقهم".

نظرت سما من النافذة وقالت: "والله إنك على حق يا خالتي. على أمهاتنا أن يعلمننا البر بهن قبل أن يطعمننا. يا الله، كم نحن مقصرون بحقهن. أتعلمين يا خالتي؟ لقد تركت خلفي أمي وأبي كي أعمل وأبني مستقبلي، ولم أصغِ لتوسلاتهما للبقاء قربهما ولم أهتم بدموعهما على فراقي؛ فقد كنت أفكر بنفسي، ولم أهتم بهما يا لله، كم نحن مغفلون؛ نبحث عن السعادة في كل الأرجاء، ونجهل أنها بالقرب منا وأقرب إلينا من أنفسنا".

عندها خاطبتها العجوز الحكيمة واعظة إياها: "لم يفت الأوان بعد ما دام والداك على قيد الحياة؛ فالفرصة متاحة، اغتنميها قبل أن تضيع، اغتنميها قبل ضياعك يا ابنتي".

ابتسمت سما، وانكبت تطبع قبلة على رأس العجوز الحكيمة؛ شاكرة إياها على نصيحتها، ووعدتها بأنها ستعود إلى والديها بأسرع ما يمكن لتسهر على راحتهما وخدمتهما؛ ليس من أجلهما فقط بل من أجل راحتها هي أيضاً.

غادرت سما العجوز، وما كادت تصل الباب حتى سمعتها تقول: "يا ابنتي، على الأم حين تبني مستقبل أولادها أن لا تنسى مستقبلاً ربما ستعيشه وحيدة بعد أن

يتركوها. لذا، عليها أن تبني مستقبلها ومستقبلهم، ولا يجدر بها أن تنسى نفسها وهم يكبرون حتى لا ينسوها عندما يكبرون".

6) للظلم حكايات

في صبيحة يوم مشرق، وفي أرض الغربة، اجتمع الأحفاد حولها وكلهم أمل بأن يستمعوا اليوم إلى حكاية عن ماضي أجدادهم وآبائهم؛ ذلك الماضي الذي كان سبب الحزن الذي يسكن عيني جدتهم الغالية، وسبب الوجع الذي يسكن أرواحهم بسبب غربة ولدوا وعاشوا بها.

قال لها فارس: "جدتي، لدينا فضول لنعرف سبب غربتنا".

تبعه خالد: "نعم جدتي، أخبرينا عن سبب خروجكم من وطننا".

أجابت الجدة وهي محاطة بأحفادها: "يا أولادي، لم نختر يوماً أن نترك أرضاً زرعها آباؤنا وعمّرها أجدادنا، وولدنا فيها وترعرعنا في ربوعها. لقد أحببنا أرضنا حدّ الهيام. ولكن، للظالم يا أحبائي حكاية مع أرضنا. ذات يوم، ثار شبابنا على ظلم حاكمنا وطغيانه، ورفعوا شعار الحرية، وأرادوا أن يكون بلدنا آمناً، وأن يعيش أبناؤه بوئام وسلام وأمان. لقد كره شبابنا الجلوس عاطلين عن العمل بسبب فساد

الحاكم وطغيانه. أرادوا حياة مختلفة، فأُصلوا بالحديد والنار، وكان الموت نصيبهم بعدما كانت الحرية هدفهم".

فسألها عمر:" ماذا فعل الطاغي بالشباب يا جدتي؟".

فأجابته: "آآآه يا حبيبي، استشهد آلاف الشبان، وسجن غيرهم، ويُتِّم الملايين، وترملت آلاف النساء".

صمت الأحفاد والحزن يغلف قلوبهم الطاهرة، والصدمة شديدة الوطأة على عقولهم البريئة؛ فهم لم يتصوروا أن يقتل شخص ما- أياً يكن- شعباً ليحتفظ بمنصب زائل لا محال.

عندها قالت سما بحزن: "أخبرينا يا جدتي عن معاناتكم مع ذلك الطاغي".

صمتت الجدة وهي تسترجع ذكرياتها وتشعر بمرارتها في حلقها. وأخيراً قالت: "فوجئنا يوماً بالجنود يحاصرون بلدتنا من كل جهاتها بالدبابات والطائرات. لم يقبل أهلنا وقتها بالعيش خانعين مذلولين، ولا بأن يتخلوا عن دينهم إرضاء لطاغية ظالم وفاسد. ولكن، عندما علمنا بما يقوم به الجنود دب الذعر في قلوبنا. وقتها كنت

صغيرة، وعلى حين غرة، تعالت أصوات الطرق على الباب، واقتحم الجنود منزلنا، واعتقلوا إخوتي الشباب. حاولنا منعهم من أخذهم، وبكينا حتى جفت دموعنا من دون طائل".

قاطع وليد جدته وقال: "لماذا أخذوهم يا جدتي؟".

أجابته الجدة بأسى: "في تلك الأيام يا بني، كان الجنود يعتقلون كل الشباب؛ وخصوصاً الناشطين منهم الذين يريدون لبلادهم أن تكون أفضل البلاد، ويرفضون أن يحكمهم من لا يهتم لأمرهم".

قال فارس: "وماذا حدث بعدها يا جدتي؟".

قالت الجدة بأسى: "بعد غيابهم لعدة أيام، عادوا إلى البيت وقد تعرضوا لتعذيب شديد؛ حتى إن أخي الكبير لم يستطع السير، وكانت آثار التعذيب تغطي جسده ووجهه. وقتها أراد أبي أن يفدي ابنه بروحه. ولكن، من لا يمتلك القوة ماذا عساه يفعل؟ بعد عدة أيام، رجع الجنود واعتقلوهم من جديد، ولم نعد نعرف عنهم شيئاً. حينها، قرر أبي أن يرسلنا إلى منطقة أخرى من البلد خوفاً علينا من بطش

الظالمين، ومكث هو وأمي في البيت على أمل أن يعود إخوتي. مضت الأيام والشوق يعتمل في نفوسنا لأمي وأبي وإخوتي المعتقلين. وعندما وضعت الحرب أوزارها، قرر أبي أن يخرجنا من البلد حفاظاً على حياتنا".

صمتت الجدة قليلاً وهي تمسح دموع الأسى، وقالت بشجن: "أتعلمون؟ حين خرجنا من المنزل رأينا مشاهد تقشعر لها الأبدان؛ فالجثث كانت منتشرة في الأرجاء. إنني لا أستطيع نسيان صورة معلمتي وهي جثة مرمية على قارعة الطريق مقطوعة الأوصال ومسلوبة، كما أنني لم أنسَ ولن أنسى قصصاً كثيرة سمعتها".

فسألها يزيد: "اروي لنا إحدى تلك القصص يا جدتي".

نظرت إليه الجدة لثوانٍ، ثم قالت: "سمعنا عن رجل كان قابعاً في منزله مع أمه وزوجته وصغاره حين دخل الجنود عليه وطلبوا هوياتهم. احتضنت الجدة أحفادها، وضمتهم إلى صدرها خوفاً عليهم، وأمر الجنود الزوجة بإحضار الهويات. وفي أثناء إحضارها الهويات، أطلقوا النار على رأس زوجها ففصلوه إلى نصفين؛ نصف بقي معلقاً بجسده، بينما طار الآخر إلى السقف. وعندها، غادر الجنود غير آبهين بما اقترفته بنادقهم. ما إن رحل الجنود حتى هربت الجدة وزوجة ابنها وأحفادها بعد

أن حملوا جثة الرجل إلى خارج المنزل. إلا أن الغريب في القصة يا أحبائي أنهم حين عادوا إلى المنزل بعد أيام شاهدوا الجثة على الحال التي تركوها عليها؛ وبالرغم من أن الكلاب كانت تجول حولها إلا أنها لم تقترب منها".

فسألها فارس: "أين ذهبتم بعد خروجكم من الوطن؟".

قالت الجدة: "عندما هدأت آلة القتل خاف أبي علينا. وعندما لم يعد إخوتي، قرر أن نغادر بلدنا. وفي صباح يوم أليم، خرجنا إلى بلد مجاور، ونحن نحلم أن تكون حياتنا في تلك الأرض خيراً من حياتنا في أرض الوطن، وأن ننعم بحرية لم ننعم بها. ولكن ما كنا نجهله هو أن قلوب البشر قد تغيرت كثيراً، وصار الأخ عدواً، والصديق لا يصدق إلا لمصلحته. حينها يا أحبابي اضطررنا للعيش مع عمنا الذي كنا نعتقد أنه سيكون لنا الوطن الذي خلفناه وراءنا، وسيمسح حزن غربتنا. ولكن صدمتنا الكبرى كانت حين عرفنا مقدار القسوة في قلبه. أقمنا لديه بضعة أشهر، أذاقنا فيها مر العلقم، ثم غادرنا إلى بلد آخر علنا نجد فيه ما ينسينا مرارة الغربة، فوجدنا فيه الكثير مما حرمنا منه، وبدأنا نحاول التغلب على تلك الآلام ونعيش حياتنا".

حينها سألتها سما: "جدتي، ما دمتم قد استقررتم في بلد عربي، فلماذا نتجرع اليوم مرارة الغربة مرتين؛ غربة الوطن وغربة الدين في هذا البلد الأجنبي؟".

قالت الجدة: "بعد أن استقررنا لسنتين في ذلك البلد، تزوجت جدكم، وعشنا بالقرب من عائلتي ردحاً من الزمن. ولكن الظلم لاحقنا من كل جانب؛ حتى من أقرب الناس إلينا؛ فابتعدنا عن عائلتي، وبحث جدكم عن عمل، ولم يجده إلا بعد أن تغرب من جديد. عمل جدكم لسنوات عديدة في أحد المستشفيات، وكانت حياتنا جميلة بالرغم من صعوبات جمة واجهناها في البداية. فقد كانت غربتنا هذه المرة أكثر إيلاماً؛ فلا أخت ولا صديقة، حتى فرَّج الله عليّ بصديقات كن لي بمثابة الأخوات، فتجاوزنا مرارة الغربة معاً، وحاولنا دائماً نسيان كل ما حدث في حياتنا. فكنا نخرج ونتسامر ونسعد أنفسنا بأنفسنا، حتى قررنا أن نعود إلى حيث الأهل والأصحاب. كان وداعنا لبلد عشنا فيه ووجدنا فيه راحتنا وأحبتنا وداعاً مؤلماً كخروج الروح من الجسد".

قال فارس: "جدتي، ما دمتم قد عشتم سعداء هناك، ولديكم حياة جميلة فلماذا تخليتم عن كل شيء وغادرتم".

أجابته جدته:" الظلم يا حبيبي حكاياته كثيرة، وأشكاله متنوعة لا تنتهي على الإطلاق. فها هو ظالم آخر له يد بتركنا ذلك البلد الذي أحببناه؛ فهو لم يقدر اليد التي مدت له وساعدته، بل عضها فقرر جدك الرحيل. وعندما عدنا إلى حيث كانت عائلتي واستقررنا، وجد جدك صعوبة في إيجاد عمل، فقرر السفر ليعمل في منطقة أخرى. عمل هناك لبعض الوقت وتركنا نصارع الحياة بمفردنا. ولكن حياة كتلك كانت من الصعب أن تستمر. وفي وقت ما، توجب علينا اللحاق به، ولكننا لم نقوَ على العيش هناك؛ فمدخول جدك كان زهيداً، لذا انتقلنا إلى هنا؛ حيث تعيش أجسادنا وقلوبنا مربوطة بنياط غير مرئية بأرض الوطن".

هنا قال خالد:"كم بودي أن أعرف يا جدتي سبب كل ذلك الظلم، وسبب معاناة أمتنا كل تلك المعاناة".

فأجابته الجدة: "يا بني، إنهم يظلمون من أجل مصالحهم؛ فحبّ السلطة يعمي أبصارهم عن الكثير من الأشياء. ولا تنسَ أننا كلنا نظلم؛ فكبيرنا يظلم صغيرنا، وقوينا يظلم ضعيفنا، لذا وُلّي علينا من يظلمنا".

صمت الأحفاد لبعض الوقت، وبعدها تفرقوا بعيداً عن جدتهم والأسى يعتمل قلوبهم لما عاشته، والأمل يحدوهم في أن يكبروا ويعيدوا مجد أمتهم.

عندها، وقفت الجدة المتألمة من كل تلك الذكريات أمام النافذة، ونظرت إلى السماء وقالت: "يا أخي الغالي، أعلم أنك رحلت إلى السماء العالية. إنني أحسبك شهيداً، ولن أمل من الدعاء لك". ونظرت بعدها إلى صورة من بلدها وقالت: "وطني الحبيب، ستتحرر يوماً من نير جبروتهم، وستعود لك كرامتك، فاصبر صبراً جميلاً. وإن لم يكتب لي أن أحيا فوق ترابك، فكلي أمل في أن يحتضن ترابك جسدي".

مسحت دمعة وابتسمت، وعادت لمتابعة حياتها، وأخفت ما تشعر به من أسى عن أعين من حولها.

7) لست عاراً

على شاطئ البحر تجلس تنظر حولها بهدوء من يراها يخيل إليه أنها ميتة أو أنها صنم من الأصنام تناظر البحر وتخبره عن معاناتها وقصتها وحكاية ألمها فمنذ ولدت تعاني من مشاكل صحية تحول دون مشيها وركضها خلف الفراشات وقطفها باقة من الأزهار تهديها لأمها التي عانت معها أشد معاناة تعتني بها وتكون حولها كل الوقت تعطيها الدواء وتُعينها على أداء الصلاة تحملها لتصل إلى كل مكان تريده كانت تعيش وسط أسرتها بسعادة... ولكن ما ينغص عليها سعادتها وكل ما ترجوه أن يطل عليها أخوها أو ابنه في الصباح أو المساء أن تراهما كما تحلم دوماً أن تمازحهما وتشاكسهما كما يكتب في القصص والروايا. وعند حضور والدها تكون أسعد السعيدات... وكانت بكل بساطة لا تستغني عن والدتها بكل شيء في حياتها وكانت دائماً تدعو أن يحفظ الله والدتها ويطيل بعمرها ويؤجرها على صبرها وذات صباح باكر عند أذان الفجر استيقظت رنا وانتظرت والدتها لتساعدها في أداء صلاتها لكنها لم تأتِ وطال انتظارها...

فسمعت أصواتاً غريبة في الخارج ذاك صوت خالتها وهذا بكاء عمتها ما الأمر؟ ماذا يحدث؟

بدأ قلبها ينقبض وهي تدعو: *سترك يا الله*

يا الله، لا تفجعني بأغلى الناس على قلبي...

وبعد يوم كامل...

تذكروها، وعندما أتوا لرؤيتها كانت قد غابت عن الوعي بسبب خوفها حملوها للمشفى وبعد فترة أعلن الأطباء أن حالتها قد ساءت وحين أخبروها بخبر وفاة أمها ازدادت حالتها سوءاً وعند موعد خروجها من المستشفى لم يأتِ أحد لأخذها بل وصلتها رسالة محتواها "أن أباها وأخاها يستعران من إعاقتها وأن أمها من كان يصر على بقائها في البيت" لتذهب إلى دار الرعاية وتعيش باقي أيامها هناك

ذرفت الدموع كل ليلة حزناً وشوقاً على أمها... أبيها... أخيها... ابنه..

وها هي الآن تجلس، وبكل بساطة على شاطئ البحر...مع صديقاتها في الدار

وعند هذه النقطة...أغمضت عينيها وغفت غفوة لن تستيقظ منها

8)أمنية لن تتحقق

كانت تجلس على سريرها الوردي المريح في غرفتها الرحبة، مرتدية أجمل حلّة، وابتسامة أرق من النسيم تزين وجهاً أبهى من البدر ليلة اكتماله، تضم دبدوبها إلى صدرها، وقصص الأميرات تداعب مخيلتها وكأنها إحداهن، لا بل أفضل منهن؛ فهل تحتاج صغيرة بعمرها إلى أكثر من حب والديها وعطفهما وحنانهما وتدليلهما لها لتشعر أنها ملكة وليست أميرة من أميرات قصص الخيال؟ حدّقت إلى الصورة المعلقة على الحائط لفتاة تغمرها السعادة، وتكاد الدنيا لا تتسع لها. نعم، ابتسمت بهدوء وهي تهم بالخروج من غرفتها لتجلس مع والديها. ولكن صوتاً أيقظها من حلمها الجميل، وأعادها إلى واقعها المرير؛ إنه صوت صراخ عمها. فجأة، ضاقت جدران الغرفة الرحبة، واختفى الدبدوب. صراخ عمها يزداد إلحاحاً وارتفاعاً. رفعت رأسها، وأخذت تكفكف دموعها، وهي تشكو لله الذل الذي تعانيه على يدي أقرب الناس إليها؛ عمها. فمنذ مصرع والديها بحادث سيارة مريع، وهي تعاني الأمرين منه ومن زوجته الظالمة. فمهما فعلت فلن

ترضيهما؛ فهما يريدانها آلة تقوم بكل شيء بوقت قياسي، وإذا أخطأت فهناك الطامة الكبرى. كانت تقصد المدرسة وآثار الضرب واضحة على يديها ووجهها. لقد أصبحت تبغض نظرات الشفقة التي تراها في عيون صديقاتها، والتي كانت في ما مضى نظرات إعجاب وغيرة. ولكن، ألم يقل الأسلاف *بقاء الحال من المحال*؟ كم تغير الزمان، ومن كان يحسدها أصبح يشفق عليها، وأصبحت تتقبل الصدقات من صديقاتها لتقتات بفتاتهم- لأن عمها لا يعطيها ما يسد رمقها- بعدما كانت تتصدق على كل محتاج. أسرعت بالخروج من الغرفة وهي تحاول محو الأفكار التي تراودها فتزيدها ألماً. رأت عمها ينتظرها عند باب المطبخ، وصاح بوجهها: "هل سأنتظرك ساعة لتُجيبي؟ هيا أعدي الشاي فلدي ضيوف".

دخلت المطبخ بهدوء لتعد الشاي على عجل. وبينما هي ترفع الإبريق عن النار انسكب الشاي الساخن على يديها فصرخت متألمة، فأتى عمها وكتم صراخها بسيل من الشتائم والضرب.

بعد تلك المعركة غير المتكافئة معه ومع وزوجته، دخلت غرفتها وتمددت على سريرها، وأخذت تخاطب صورة والدها: "أبي، عد أرجوك. عد وانظر إلى ما آلت

إليه حالي على يدي شقيقك. إنه يضربني ويشتمني في حين كنت تدللني وتكرمني. إنه وزوجته يكلفانني بأعمال بيتهما في حين كنت تغضب إن رأيتني أنقل كوب ماء. أبي، أترى الظلم الذي تتعرض له محبوبتك على يد من أحببت؟ إنه يحرمني من أبسط حقوقي، ويحول دون دراستي. فبعد أن كنت من المتفوقات، بالكاد أستطيع النجاح اليوم. وها أنا أرى طموحاتي وأحلامي تتلاشى كالهباء المنثور. لقد ذبلت زهرة الأمل التي غرستها في روحي، وسقيتها بعطفك ورحمتك. أتذكر يا أبي أيام عزك كيف كنت أقدم الهدايا لصديقاتي؟ ها هن اليوم يتصدقن عليّ لكي أسدّ رمقي. هَلُمّ يا أبي، تعال وخذني، هَلُمّ إلى ابنتك دلوعتك لدقائق. احتضني وخفف من آلامي. لقد باع أخوك البيت الذي قلت لي يوماً إنه مسكني طوال العمر. أتعلم يا أبي؟ إن الزمن تغير؛ حتى خالي الذي آويته، وأطعمته، وساعدته على تجاوز مطبات الحياة، عندما يراني اليوم في الطريق يتجاهلني".

صمتت لدقائق، ونظرت إلى صورة أمها وأخذت تحدثها قائلة: "هلمّي يا منبع الحنان لتحميني ممن حولي. ألست أنت من قلت إنك ستدفعين عني كل أذى في هذا العالم؟ ألست أنت من قلت إنه ما من شيء يستطيع أن يؤلمني ما دمت

ابنتك؟ انظري إليّ اليوم، ها أنا أتألم من كل شيء. هلمّي يا أمي، أرجوك انصحيني وقولي لي ماذا أفعل. تعالي وهدِّئي من روعي، واتلي عليّ آيات القرآن لأنام آمنة مطمئنة. كم أشتاق يا أمي لحضنك ولمسة يدك وصدى ضحكتك. إنني أحتاج إليك كما لم أحتج إليك قبلاً، أحتاج إلى ابتسامتك لأستمد منها القوة والعزيمة، وأحتاج إلى كلماتك كي أصبر على ما أنا فيه. يبدو أن الناس الذين تركتهم في هذا العالم لم يتعلموا منك معنى الرحمة، ولم ينالوا شرف العطاء. إنهم ذوو قلوب متحجرة، وأرواح مدنسة بعكس روحك الطاهرة النقية. أتعلمين يا أمي؟ لقد أصبحت اليوم محل سخرية من حولي واستهزائهم يا أمي. أتعلمين يا ملاكي أن ورود الأمل التي زرعتها يدك الطاهرة في نفسي قد ذبلت وستقتلع قبل أوانها؟ يا ملاكي، لقد تحطم بنيان الأمل وأصبح أطلالاً على يدي عمي وخالي؛ أقرب الناس إليك وإلى أبي. هلُمّي يا ملاكي لأجلي ولأجل الأيام الجميلة التي ذهبت بذهابك. لقد استُبدل حلم الطب الذي حلمنا به بواقع رغبة عمي في أن أصبح خادمة له ولزوجته بعد أن أعود من المدرسة. كيف سأحيا يا ملاكي من بعدكما؟ وكيف لروحي أن تصبر على فراقكما. إنني أشعر بطيفيكما يرفرفان حولي

ويحرسانني. ولكن أباستطاعة الأرواح الطاهرة ردّ عدوان الطغاة عن الأجساد الطاهرة. يا ملاكي، لا تزال كلماتكما التي غرست فيّ طاعة الكبير واحترامه دأبي وديدني مهما فعل بي. ولكن، إلى متى سيبقى هذا حالي بعد كل ما أقاسيه؟ يا أمي، يا ملاكي، كل ما زرعتماه فيّ يذبل، ولم يبقَ من أثركما إلا اسمي، حتى إن شكلي الجميل الذي ورثته منكما انقلب قبحاً وبشاعة على يد أقرب الناس إليكما. هَلُمي يا ملاكي، فأنا مشتاقة لحضنك ولمسة يدك".

خبأت الصورة بعيداً عن عيني عمها، وهي تمسح دموع الشوق لوالديها وقلبها يناجيهما: "عودا، فما عدت أقوى على فراقكما، ولا أطيق صبراً على بعدكما".

أغمضت عينيها وغفت والأمل يكبر فيها، علها عندما تستيقظ تجدهما قربها عادا ليملآ حياتها بهجة وفرحاً.

9)الجرح يتجدد

في هذا المساء، اشتقت إلى دفء وطني بينما الثلج يغمر الأرجاء، واشتقت إلى رائحة قهوة جدتي وهي تروي قصصاً من الماضي عاشت كل تفاصيلها وكأنها تشاهدها أمام ناظريها لحظة روايتها. ها هي رواياتها تتكرر على شاشة التلفاز أمامي، حيث أُبيدت مدينة بأكملها، ولم يسلم منها بيت أو بناء، وانتشرت رائحة الموت فيها، وتشربت أرضها دماء أبنائها فأزهرت اليوم شباباً يثورون ويطالبون بالحرية ويرفضون الظلم والاستبداد. أين السبيل لمحو صورة جدتي ودموعها التي تسيل غُدراناً وهي تروي قصة ذلك البطل ضيئل الجسد وصغير العمر الذي ترك منزله غير متردد، حاملاً روحه بين يديه، ومتناسياً دموع والدته وما ستكون عليه حالها يوم ستسمع خبر استشهاده أو فقدانه؟ خرج ذلك البطل حاسراً غير مُقَنّع، فهو لم يكن يخشى إلا ربه. وقتها لم تكن سنو عمره قد تجاوزت السبعة عشر ربيعاً، وقد خرج على أمل إنقاذ البلاد والعباد ممن يعيثون فيها فساداً. بالرغم من

صغر سنه كان باراً بوالديه، وحنوناً يرفض بشكل قاطع أن يُقتَل أحد أمام أطفاله؛ فبرأيه، إن تلك المشاهد ستميت قلوبهم وستحيي في عقولهم التعطش للدماء وحب الانتقام. قالت جدتي إنها شاهدته ذات نهار وهو يأخذ أطفال أحد الظالمين الجبناء ويعيدهم إلى البيت، كي لا يروا ما سيؤول إليه مصير أبيهم الذي قام رفاقه المقاومون بتصفيته. كيف أنسى الموت وهو يتجسد في صوتها عندما أخبرتني عن بطولات شباب لم يخافوا البشر بل رب البشر، أولئك الذين أخفوا أسلحتهم عن أهاليهم كي لا يُكتَشَف أمرها، ولم يفرّقوا بين قريب أو بعيد عندما قرروا الاقتصاص من المتعاونين مع الظالم؛ فقتلوا القريب قبل البعيد. أولئك الذين كانوا ينشدون أناشيد الجهاد بأصواتهم الرخيمة، ويرددون الهتافات المحمسة للقاء رب العباد بصوت حين تسمعه يخيل إليك أن مصدره الجنان. منهم شباب لم يقعدهم العجز والإعاقة عن محاربة الظلم؛ فحتى المقعد كان له دور كبير؛ فقد حارب وحمل سلاح العقل. لن أنسى همسها الرقيق وهي تخبرني عن ذلك المقعد، وتقول إنه كان قائدهم، وكان هزيل البنية ومبتور الساقين، وتمثل دوره برسم الخطط، واستطلاع الأماكن؛ فكان يتجول بكرسيه المدولب من دون وجل ليؤمن لأحبته

وإخوانه بالوطن الطريق الآمن والحماية الكافية. وقتها لم يشك أحد به وبدوره؛ لأنهم لم يعلموا حينها أن العجز عجز العقل لا الجسم. لا أزال أتذكرها وهي تخبرني عن شهداء لم يجدوا مكاناً يدفنون فيه سوى باحة المسجد، فدُفنوا ونسي الناس أمرهم وكأنهم لم يكونوا. وبعد سنوات طويلة. وعندما جرت أعمال توسعة للمسجد، وجدت جثامين أولئك الشهداء الذين أخلصوا النية لله تعالى على حالها لم تتحلل. وعندما اكتشفت تلك الجثامين وهي لا تزال على حالها غير متحللة وكأنها دفنت للتوّ تعالت التكبيرات. شعر الناس بسعادة غامرة حين تعرفوا على أصحاب الجثث وعلموا أنها تعود لأبنائهم ولأحبائهم. لن أنسى تلك الأرملة التي كانت تربي أطفالها وحيدة، وتطعمهم من دم قلبها من شدة فقرها وحاجتها الماسة إلى بعض النقود لتقي أولادها جور الأيام؛ فقد فقدت زوجها ومعينها في هذه الحياة، شاهدته يومها وهو يُقاد إلى داخل سيارتهم ليُعاد بعد عدة أيام جثة هامدة... واليوم، ها هي تشاهد والدها الغالي ممدداً أمامها، تفوح منه رائحة المسك، والنور يشعّ من وجهه المبتسم تلك الابتسامة التي لا يملكها إلا شهيد. ومع هذا، لم تتراجع عن هدفها في تحقيق النصر لشعبها... فكم من الصعب أن

يقتل أمامك أغلى اثنين على قلبك وأنت تقف عاجزاً عن حمايتهما... حينها لم تستجدِ إلا الله، ولم تنادِ على العرب، بل كرست طاقتها للدعاء إلى الله بأن يثبتها ويبدلها خيراً مما هي فيه.

ولن أنسى تلك الأم التي فقدت أربعة أو خمسة من أبنائها وهي تقول: لو كان لدي سادس لما ضننت به. ولن أنسى صورتها وهي تروي عن ظلم الجيش، وكيف نهب كل ما في المحال التجارية والبيوت، وأحرق الأخضر واليابس، ولم يبقِ على شيءٍ صالح للاستعمال البشري.

حدثتني عن حقد بعض البشر وخيانتهم حتى لإخوانهم في سبيل الحصول على حفنة من المال؛ فذاك الذي باع أخاه بأبخس الأثمان، وضحى به وبأهل حارته من أجل سعادة زائلة وزائفة، فعاون الجنود ودلّهم على مخابئ شباب حارته لتقتلهم أيدي الظلم، وكشف عن مخبأ أخيه الذي مات برصاصتين؛ إحداهما أطلقها جنود الطاغية، وأخرى كانت مجبولة بخيانة شقيقه. كم تخيلت صورته ورصاصة أخيه تسكن صدره في قلبه فيموت كمداً حزيناً قبل أن يموت من رصاصة جنود الطاغوت الظالم. وكم هي مُرّة دموع الأم على ولديها؛ فأوّلهما شهيد سعيد،

والثاني متعاون حقير ضحى بأخيه من أجل أموال الدنيا وزينتها، ونسي جزاء المتعاون مع الظالم الذي لم يفرق بين امرأة أو رجل؛ فحتى النساء قتلن وقطعت أوصالهن.

هل أنسى دموع جارتنا التي ربت أطفالها اليتامى من دون شكوى عندما كانت تتذكر مشهد جثة زوجها الملقاة أمام البيت، والتي لم يقوَ أحد على دفنها خوفاً على روحه.

كانت جدتي تقول لي دائماً إن الظالمين وحوش وليسوا بشراً، دافعوا عن ظالم ولم يبالوا بأرواحهم؛ إذ كانوا أكثر من ضعفاء ليفعلوا ما فعلوه من دون رحمة أو حتى تأنيب ضمير. *يا ابنتي، إياك والدفاع عن متجبر، وإلا فستكونين حينها مثله وأكثر.*

قالت لي غاليتي حينها: "أتعلمين، لن أنسى دموع أمي وهي تودعنا حين غادرنا بعد فقدانها ابنها وحفيديها. كانت دموعها خناجر تخترق صدري، ويستمر ألمها إلى لحظتي هذه. كم كنت آمل أن أراها قبل أن تموت لأطلب منها الغفران لي؛

لأنني لم أستطع كفكفة دموعها، ولكنها رحلت وخلفت حسرة كبيرة في قلبي تكبر يوماً بعد يوم".

روت لي جدتي ولسنوات طويلة عن أطفال ماتوا جوعاً وبرداً من دون أن يبالي بهم أحد؛ فنقص حليب الأطفال جعل الأمهات يضحين بالكثير لتأمين القليل منه لإطعام أطفالهن. وكن يدفئنهم بأحضانهن؛ علّ دفء أحضانهن يعوضهم عن دفء المدافئ.

لم تنسَ جدتي أن تروي لي عن نهايات بعض الظالمين، وكيف اقتص الله منهم في أبنائهم. فمنهم من أصيب أولادهم بمرض عضال، فجالوا بهم في أرجاء المعمورة طلباً للعلاج، ولكن عقاب الله كان عظيماً فرأوا أولادهم يموتون أمامهم، ولم تنفعهم حينها سلطة ولا مال.

نظرت إلى شاشة التلفاز، ورأيت صوراً كثيراً ما روت لي جدتي حكايات تشبهها. فها هي الأشجار تُسقى مجدداً بدماء الشهداء، وعصافير الحرية تستنشق رائحة دمائهم الزكية. يا وطني، كم عانيت من ظلم الظالمين وجبروتهم؟ متى ستستريح

ويرتاح شبابك من جبروت من لا قلوب لهم؟ لك الله يا وطني. أتعلم يا وطني؟ كانت جدتي تقول على الدوام: *فقدنا الولد والاثنين، وفقدنا الأب والأخ والأهل أجمعين، فصبرنا لأننا سنراهم في الجنان. ولكن، أن نفقد تراب الوطن فكيف لقلوبنا أن تتحمل؟ لقد كسرنا في الغربة يا وطني.. وكرهنا ببعدنا عن ترابك وجمال أشجارك..*

10)ولادة على قارعة الطريق

علت الزغاريد فرحاً في منزل والدَي حسام فرحاً بحمل زوجة ابنهما، وفي منزل والدَي سراب فرحاً بحمل ابنتهما. كانت فرحة العائلتين لا توصف، وأخذت العائلتان تعدان الأشهر والأيام التي تفصلهما عن قدوم الضيف الغالي، فالجميع يحلمون بقدومه منذ سنوات. فمنذ أن أنجبت أم حسام وليدها وهي تحلم بحمل حفيدها. كبر حسام وكبرت معه رغبة أمه برؤية حفيدها وحمله بين ذراعيها، وشراء الألعاب والهدايا له، وتربيته وتنشئته كما ربت أباه. لم يفارقها هذا الحلم يوماً، فحقاً لا يوجد أحد أغلى من الولد إلا ولد الولد.

في المقابل، كادت أم سراب تطير فرحاً بحمل ابنتها؛ فها هو ابن الغالية قادم، وهي تمني نفسها أيضاً بتربيته كما ربت أمه، وستعلمه كما علمت أمه القراءة وحب الوطن، وستحمله وتهدهده، وتقدم له كل ما يطلبه وما لا يطلبه. فهو ابن الغالية، وهي مشتاقة لرؤيته قبل أن ترى عيناه نور هذه الحياة، وتتوق لشم رائحته وإطعامه، كما تتخيله يكبر أمام عينيها ليصبح رجلاً عظيماً يدافع عن الوطن

ويحمي ثغوره. كم تتوق لتراه يضحك ويمازحها ويخاف عليها ويرعاها. لم يفارقها حلم أن تصبح جدة مطلقاً؛ فهي تراه في المنام واليقظة، وها هو حلمها بات قريباً لدرجة أنها أصبحت تراه أمامها.

بدأت العائلتان بشراء مستلزمات الطفل، وامتلأت غرفته بالهدايا قبل مجيئه. اشتُرِيَت الألعاب، والمهد... وأحضر أفراد العائلتين كل ما يخطر على بالهم؛ فلم يبقَ شيء في الأسواق إلا وابتاعوه لحفيدهم، ولم يتركوا شيئاً رغبت به أنفسهم إلا وجلبوه له؛ فهو أول فرحة للعائلتين. كانت سعادتهم لا توصف، وكلما دنا موعد الولادة ازدادوا حماسة. الآن، حان اليوم الموعود الذي انتظروه سنين عديدة، وها هو الحلم يوشك على التحقق.

ذات صباح، استيقظت سراب وهي تشعر أن مولودها سينير حياتها اليوم ويزيدها سعادة وبهجة. أصبحت تشعر أن حلم أمها صار على وشك أن يصبح واقعاً ملموساً، وها هو أمل حماتها سيخرج إلى الدنيا. كم ستشعر بالسعادة حين ترى الفرحة في عيون الجميع وتشعر بها في صدى أصواتهم. كم سيكون هذا اليوم مميزاً. خرجت وزوجها والفرح يغمر قلبيهما. ركبا السيارة والأمل يزداد كل حين. لم يبقَ

على تحقيق الحلم إلا ساعات معدودة. قصدا المستشفى وهما يدعوان ألا يوقفهما شرطي أو حاجز عسكري؛ فالوضع في البلد هذه الأيام غير آمن والجنود يضربون طوقاً في كل المناطق ويمنعون الناس من مغادرة منازلهم. حتى إنهم سيمنعون الطيور من التحليق إن استطاعوا إلى ذلك سبيلاً.

بعد اجتيازهما نصف الطريق حدث ما كانا يخشيانه. فها هما أمام حاجز يوقفهما، وعسكري نُزعت الرحمة من قلبه لم يبالِ بأنين المرأة المتألمة، ولم يبالِ بنظرة الفرح في عيون الزوجين، ولم يبالِ برائحة الأمل باقتراب تحقيق الحلم. أمر الجندي "حسام" بالنزول من السيارة، وأمر الجنود بتفتيشها. رجاه حسام بأن يسرعوا فالحال صعب، وزوجته على وشك الولادة. فما كان من الجندي ورفاقه إلا أن أوسعوه ضرباً من دون رحمة، وعذبوه أمام عيني زوجته؛ وكأنهم يتلذذون بسماعهم صراخها وهي ترجوهم أن يتركوه لكي يتمكنا من متابعة طريقهما. لم يُجدِ صراخها ورجاؤها نفعاً؛ فهم لم يبالوا بصوت الألم. وما لبثت سراب أن فقدت وعيها بعد أن رفضت عيناها رؤية حسام وهو يتعرض للتعذيب، وحلم حياتهما يضيع شيئاً فشيئاً بسبب حقد بعض الجنود وكراهيتهم. بدوره، لم يحتمل الجنين القادم إلى

الحياة ما يحدث لأبويه، فأراد الخروج إلى الحياة على عجل ليدافع عنهما؛ فأتى المخاض سراب عند قارعة الطريق. وعندما أطل الوليد إلى هذه الحياة، أسرع الجنود نحوه؛ ليس لإنقاذ الأم المتألمة، ولا لحماية الروح القادمة إلى الحياة الروح التي لا تحمل حقدهم ولا كراهيتهم، الروح التي لم تلوثها أيدي البشر. بل أسرعوا ليقضوا على تلك الروح الطاهرة البريئة التي خرجت للتو إلى حياة مؤلمة، حياة تنعدم فيها الرحمة بسبب أمثالهم. هجم الجنود على الطفل، وقاموا بركله وكأنه دمية وليس روحاً؛ ففقد الحياة بعد ثوانٍ من ولادته. ما إن شاهدت سراب ما حل بوليدها حتى أبت العيش في عالم لم يجد طفلها الغالي مكاناً له فيه فأسلمت الروح، أما حسام المثكول بما شاهده، فقد فَقَد عقله، ولم يعد يفقه في هذه الحياة شيئاً. فماذا يريد من دنيا فيها مثل هؤلاء الوحوش الذين لا يخافون الله، والذين نزعت الرحمة من قلوبهم فحولوا فرحته بقدوم طفله إلى مأتم مؤلم؟ اتشحت العائلتان بالسواد حزناً على فقيديهما الغاليين. ومما زاد حزن الجميع جنون الزوج والأب المثكول الذي صار يهيم في الطرقات على غير هدى وهو ينادي زوجته وابنه، علهما يسمعانه. ولكم تمنت الجدتان لو أنهما فارقتا الحياة قبل أن تريا ما

حدث لهذه العائلة التي كانت يوماً ما سعيدة. بالأمس، كانتا تحلمان والأمل يسكن عيونهما، وروحهما تحلقان من كثرة الرضى والفرح. أما اليوم، فقد هاجرت الفرحة روحيهما إلى غير رجعة، فهما لن تريا حفيدهما، ولن تعلماه، ولن ترياه يكبر أمام أعينهما؛ فقد غادر وأمه وأخذا الأمل معهما، وتركا عائلتين تعيشان ألماً لا يستكين، وحزناً لا ينضب، وتتشحان بالسواد على حلم مات عند قارعة الطريق.

11)هو وهي

هي

احتضنت نفسها، وعيناها الحزينتان تفيضان دمعاً لما آلت إليه حالها. فمنذ سنة وهي محرومة من أبسط حقوقها؛ كالخروجِ والتنزه ورؤية الأصدقاء. منذ سنة وهي تنام لتصحو على ما نامت عليه من همس كل من حولها عليها. لم يرحمها حتى أقرب الناس إليها. إنها تعاني بصمت، وتجهد لكي تحمي نفسها من سموم من حولها. فحتى من كان يشهد يوماً بأخلاقها الحميدة وتربيتها الحسنة، أصبح ينظر إليها اليوم وكأنها ارتكبت إثماً عظيماً. حتى إنّ والديها يريانها مذنبة، ويريان أنها لم تتصرف بحكمة، وهما ينظران إليها وكأنها حمل يرزحان تحت ثقله، ويطالعانها بنظرات الانزعاج أكثر من نظرات الشفقة.

نظرت إلى صورتها المنعكسة على صفحة المرآة وقالت: "يا الله، كم هي مظلومة الأنثى في مجتمعنا، وكم تعاني من قسوته؛ وإن لم ترتكب إثماً. فالمجتمع ينظر إليها وكأنها مخطئة، وكأنه كان بمقدورها تجنب ما حدث. كم على الأنثى أن تردد

أن لا ذنب لها، وأنها لم تخطئ بشيء؛ فالأنثى تعاني كثيراً في مجتمعنا، وستعاني أكثر، ومع هذا ما من أحد يرحمها".

هو

يضم طفله إلى صدره بسعادة عارمة، وعيناه تلمعان فرحاً. يشم رائحته مردداً: "ما أجملك يا حبيبي وما أروعك. لم أتخيل يوماً أن أراك على هذا القدر من الوسامة. كم أنت مذهل، لقد أحببتك قبل أن أراك، وها أنا أزداد حباً لك".

لم يفكر للحظة بالماضي القريب، فتلك الأيام ما عادت تهمه. وكما تعلّم منذ صغره، إنه رجل، وبالتالي ما من شيء يعيبه. لذا، لن يسمح لعقله أن يفكّر أو يسأل عن حال تلك الأنثى المجروحة التي خلفها وراءه من دون أن يرف له جفن. لماذا يهتم لأمر من لم يحبها ولم يشعر بها يوماً للحظة!؟ فقد كانت حملاً ثقيلاً تخلص منه، وها هو الآن يعيش سعيداً مع زوجته، وفرحاً بقدوم ابنه، متابعاً حياته غير عابئ بشي.

هي

نظرت عبر نافذة غرفتها فوجدت الأطفال يلهون في الحديقة، وأحست بانقباض لأنها تدرك كم أصبح حلم الأمومة بعيداً عنها؛ بعد أن اقترب منها كثيراً إلى حدّ أنه كاد يصبح واقعاً ملموساً، إلا أنه اختفى فجأة كما أتى فجأة. كان حلماً جميلاً حوَّله من يحيطون بها إلى كابوس؛ قبل أن يصبح الحلم بهذا الحلم مستحيلاً. ذات يوم، كانت تحمل جنيناً في داخلها، إلا أنها فقدته بغمضة عين ولحظة غضب. لقد مات قبل أن ترى عيناه نور هذه الحياة. خاطبت نفسها بأسى: "ها هو سعيد اليوم مع طفله، وها أنا أعاني وحدي مرارة أفعاله من دون معين. لقد وجد شريكة حياته وتابع حياته بشكل طبيعي، بينما أقبع في مكاني وأنا لا أستطيع أن أخطو خطوة واحدة إلى الأمام؛ فمن هن في مثل حالتي لا ينظر المجتمع إليهن ويعتبرهن عبء كبير. من هن في مثل حالي يجدر بهن الوقوف في الظل، والنظر إلى الجميع بعينين حزينتين لا تقويان على فعل أي شيء سوى الانتظار؛ انتظار شيء لن يأتي".

هو

يعلم علم اليقين أنه المذنب؛ فهو لم يحبها يوماً. ويعلم أنه أخطأ حين ارتبط بها، ولكنها كانت أحد تحدياته مع أصدقائه، وقد اعتاد أن لا يخسر تحدياً يقحم نفسه فيه. فقد تحداه بعض رفاقه أن يتزوجها، وهي التي لم يستطع أحد التحدث إليها لأنها ببساطة لا تتحدث مع غريب؛ فقد ذاع صيتها بتمسكها بالعادات والتقاليد. أدرك أنه إذا كسب التحدي معهم وتزوجها فسيثبت لهم مقدار عظمته، ولم يخطر بباله وبالهم كم سيظلمون تلك الأنثى بتحديهم الشنيع هذا، وكم سيجعلونها تعاني من دون أن يرحمها أحد. لم يستطع أن يعتبرها نصفه الآخر؛ لأنه كان يراها أفضل منه وأنظف، وكان هذا يتعبه. لقد عمد إلى ضربها وتشويه روحها قبل جسدها، ولم يهتم أو يسأل نفسه عن النهاية، أو إلى متى ستحتمل تلك المسكينة إهاناته لها. كما لم يهتم يوماً إلى ما ستؤول إليه حالها.

هي

حلمت كباقي بنات جنسها برجل يحميها ويكون عوناً لها، وترزق منه بالبنين والبنات، وبأن يبنيا معاً أسرة سعيدة. إلا أن أحلامها تحطمت على صخرة واقع أنها تزوجت من لا يمت إلى الإنسانية بصلة. فقد كان صباحه صراخاً، ومساؤه ضرباً من دون سبب. عانت بصمت، وتحملت من أجل حلم العائلة التي تريد أن تبنيها؛ حتى بلغ السيل الزبى حين خسرت جنينها وحلمها بإنشاء أُسرة سعيدة. عادت إلى أبويها مطلقة، تتحمل نظرات المجتمع إليها؛ تلك النظرات التي تعتبرها مخطئة مذنبة لأنها لم تصبر وتتحمل بشاعة واقعها. اليوم، لم يعد بمقدورها فعل ما يحلو لها كما كانت في الماضي. فنظرة الاتهام تُجلسها في البيت وتقضي على كل حبها للحياة.

هو وهي..

إنه يعيش اليوم سعيداً، فيما هي تعاني من تعاسة واقعها. لم يلتفت إليها أحد، ولم يهتم أحد بمساعدتها على النهوض من جديد. فاللوم ينصبّ عليها، أما هو فمثل

الثوب الأبيض لا يمكن أن يُدنّس باللوم. إنه يتابع حياته وكأن شيئاً لم يكن، بينما أضحت هي ضحية مجتمع قبل أن تكون ضحية زوج كتب عليها أن تتابع حياتها محرومة من أبسط حقوقها بتكوين أسرة، فيما يعيش هو بعيداً في أحضان أسرته. هي تبكي حظها، وهو يضحك من صميم قلبه على تصرفات أطفاله. ستبقى تبكي من بعده حزناً، وستتابع حياتها من دون روح، وستواجه كلمات كل من حولها بصمت وهي تناجي الله أن يلهمها الصبر والسلوان.

12) سيبقى الأمل

في ظلمة الليل، كان يقف والإصرار في عينيه، وبيده يحمل شعاراً للحرية رآه شيخ كبير، فأحب أن يعرف سبب نظرة القوة في عينيه والشموخ الذي يبدو على وجهه فكان هذا الحوار.

قال له: "أين أبوك؟".

أجابه مبتسماً: "في الزنزانة، منذ عقود عدة، منذ أن قرر الثورة على ظلم حاكم".

قال له: "وأين أمك؟".

أجابه: "في الجنان، انتقلت إليها في اليوم الذي دخل فيه الجنود بيتنا وقتلوا كل من فيه، فلم يكن فيه إلا هي وابن اختي الرضيع".

قال له: "أليس لديك أخوات؟".

أجابه: "لي أختان. الأولى على فراش المستشفى تأنّ كل صباح، وتذرف دموع الحزن في المساء على الرضيع الذي قتل غدراً. أما الثانية، فقد أبعدوها عن الأوطان منذ تلك السنين فهي رفضت العيش تحت الذل بصمت".

قال له: "ألا تملك إخوة؟".

أجابه: "بلى، فلأبي خمسة شباب. الأول حمل روحه على كفه وانتقل إلى موكب الشهداء مع أبطال تلك الثورات. والثاني ودع أمي ذات مساء وغادرها ولم يعد، وقيل إنه سافر إلى السماء بعد تعذيب دام سنوات. والثالث يأتيني كل عدة شهور ويمسح على رأسي ويقول *كن بخير. كن بطلاً. سأعود من أجلك يوماً. سأعود يوم يزول الظلم عن البلاد*. والرابع مفقود لا ندري إن كان شهيداً أم مقتولاً، والحسرة في قلوبنا تكبر عليه. وأنا الخامس. طموحي أن يكون مصيري كمصير أخي الأول والثاني، وهدفي كالثالث، وزد عليه رغبتي في الثأر للرابع".

قال له: "ألا يتسلل اليأس إلى قلبك؟".

أجابه بابتسامة: "ليس لليأس مكان في قلبي؛ طالما أن هناك رباً لا يحب الظلم، وكتابه بيدي، وأحفظ سنة نبيي. لا يأس في قلبي طالما أن هناك شمساً، وسيبقى الأمل ما دامت فيّ روح".

نظر إليه الشيخ بإعجاب وقال: "أنت من سيعيد المجد لبلادنا، ويعيد العزة لأرض الآباء. على يدَي أمثالك سنتحرر من ظلم كل متجبر؛ فأنت صاحب قضية، ولديك طموح وهدف. أملي أن تحيا بلادي حرة".

ثم حمل عكازه وقبل رأس الفتى وقال: "أنت من يجب أن يحترم فعلاً، فعلى يديك سيزول الظلم من بلادنا".

الفهرس

أمل بين أشواك الألم ١٠

الطيبة في زماننا مشروع فاشل... ٢٢

الوطن أغلى من الولد... ٣٠

أحلام محطمة... ٣٨

قالوا أنهم فرحة.. ٤٦

للظلم حكايات... ٥٤

لست عاراً.. ٦٢

أمنية لن تتحقق.. ٦٤

الجرح يتجدد... ٦٩

ولادة على قارعة الطريق... ٧٦

هو وهي.. ٨١

سيبقى الأمل... ٨٧

للنشر والتوزيع